المجلد السابع والعشرون للعام ٢٠٢٣م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

حجاج الوليد بن المغيرة حول القرآن الكريم بين الإقناع والإمتاع

Hajjaj Al-Walid bin Al-Mughirah on the Holy Qur'an between persuasion and enjoyment

بقلم الدكتورة

اعتماد السيد عبد الفتاح شاهين

مدرس بقسم البلاغة والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية.
جامعة الأزهر - جمهورية مصر العربية

الجزء الخامس (إصدار يونيو ٢٠٢٣م)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

حجاج الوليد بن المغيرة حول القرآن الكريم بين الإقناع والإمتاع

اعتماد السيد عبد الفتاح شاهين

قسم البلاغة والنقد ـ بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية ـ جامعة الأزهر ـ جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني : eetmadshheen_islam.alx@azhar.edu.eg

الملخص

انطلاقًا من أهمية الخطاب الحجاجي باعتباره الركيزة الأساسية في إيصال الأفكار وتحقيق المقاصد بين "المتكلم والمتلقي"، وتضمنه كل وسائل الإثارة والإقناع والتحاور، وانطلاقًا من أهمية الكلمات المأثورة عن الوليد بن المغيرة مع قومه حول القرآن الكريم خاصة أنه من بُلغاء عصر الوحي كانت هذه الدراسة التي جاءت بعنوان حجاج الوليد بن المغيرة حول القرآن الكريم بين الإقناع والإمتاع؛ حيث ركزت على بلاغة الجانب الاقناعي والحجاجي، الذي يظهر بصورة بارزة في حوار الوليد بن المغيرة مع زعماء قريش في أمر محمد وما جاء به، متبعة المنهج التحليلي، بهدف رصد الملامح الحجاجية في قول الوليد بن المغيرة عن القرآن. حيث وصف القرآن بأرقى الكلمات، فجمع بين الفصاحة والبيان، فكان قوله بليغًا مقنعًا في الآن ذاته، فقد أمتع كل من سمع قوله عن القرآن، ولكنه خدع عقله وعقول قومه بتفسيره بالسحر، واستخدم في ذلك حجج واهية وحاول اقناع أتباعه بأن يثبتوا للقرآن ما نفاه هو عن القرآن مستخدمًا أسلوب الحجاج ويؤكِّد ادِّعاءاته بحجَّةٍ شبه منطقيَّةٍ هي حجَّة التَّماثل والحَد، وتجد لديه معرفة دقيقة بمواقع الحجج ومواضعها وتجده يدير الحوار في منتهى اللباقة والقوة، فيبدأ بعرض الآراء المطروحة والمقترحات، بل بتعبير أدق المفتريات والادعاءات التي ادعها قومه على القرآن الكريم وعلى سيد المرسلين، فبدأ يفند كل حجة على أساس قوي، وهو الذي لم يعلم أسس الحجاج المعروفة الآن، تجده قد طبق هذه الأسس بكاملها، فأخذ يعرض الفكرة ثم الرد عليها ودحضها وتفنيدها، وذكر الأدلة على صحة ما يقول وربط المقدمات بالنتائج، وتنوعت الوسائل البلاغية الموجودة في كلمات الوليد التي

استخدمها في صياغة محاوراته، فمن تشبيه إلى استعارة إلى كناية إلى استخدام صور البديع بأنواعه...، فهذه الصور البلاغية توفر الجمال وتقرنه بالإقناع

وأثبتت هذه الدراسة أن التطور الذي عرفته البحوث الحجاجية نابع من استلهام الموروث البلاغي عند العرب من خلال إحياء التراث البلاغي، وأن الوليد يعد أوّل من تنبّه إلى عظمة القُرآن، وأول من شهد بإعجازه وجاءت كلمته المأثورة عن القرآن الكريم، جامعة لكثير من وجوه إعجاز القرآن الكريم. وأن الوليد يمتلك عقلية حجاجية مكنته من بناء حواره بناءً حجاجيًا قادرًا على الوصول إلى الأهداف والغايات التي سطرها منذ البداية وهي اقناع قومه بأن ما يقوله محمد سحر، ونال الوليد بن المغيرة عقاب الجرأة على الله عز وجل، لذلك ظل القرآن يلاحق الوليد وأمثاله في أكثر من مرة وفي أكثر من سورة وبأكثر من أسلوب مما جعله يعيش الصراع الداخلي

الكلمات المفتاحية: حجاج الوليد ، القرآن الكريم ، الحجاج بين الإقناع والإمتاع.

Hajjaj Al-Walid bin Al-Mughirah on the Holy Qur'an between persuasion and enjoyment

Etimad Mr. Abdel-Fattah Shaheen

Lecturer at the Department of Rhetoric and Criticism Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls in Alexandria, Al-Azhar University - Arab Republic of Egypt.

Email: eetmadshheen_islam.alx@azhar.edu.eg

Abstract

In the name of God, the most gracious, the most merciful

Based on the importance of the argumentative discourse as the main pillar in communicating ideas and achieving the purposes between the "speaker and the receiver", and it includes all means of excitement, persuasion and dialogue, and based on the importance of the words quoted from Al-Walid bin Al-Mughirah with his people about the Holy Quran, especially that he is one of the rhetoric of the age of revelation, this was the study that It came under the title Hajjaj Al-Walid bin Al-Mughirah on the Holy Qur'an between persuasion and enjoyment.

Where I focused on the rhetoric of the persuasive and argumentative side, which appears prominently in the dialogue of Al-Walid bin Al-Mughirah with the leaders of Quraysh in the matter of Muhammad and what he brought, following the analytical approach, with the aim of monitoring the argumentative features in Al-Walid bin Al-Mughirah saying about the Qur'an. Where he described the Qur'an with the finest words, he combined eloquence and eloquence, so his saying was eloquent and convincing at the same time, so he entertained everyone who heard his saying about the Qur'an, but he deceived his mind and the minds of his people by interpreting it with magic, and he used flimsy arguments and tried to persuade his followers to prove to the Qur'an what he denied. about the Qur'an using the method of al-Hajjaj and confirms his claims with a quasi-logical argument that is It is the argument of

symmetry and limitation, and you find that he has accurate knowledge of the locations of the arguments and their locations, and you find that he manages the dialogue with the utmost tact and strength, so he begins to present the opinions put forward and proposals, or rather the slanders and allegations that his people claimed against the Holy Qur'an and the Master of Messengers, so he began to refute every argument on a strong basis, which is Who did not know the well-known foundations of al-Hajjaj now, you will find that he applied these foundations in their entirety, so he presented the idea and then responded to it, refuted and refuted it, and mentioned the evidence for the validity of what he says and linked the premises to the results, and the rhetorical means varied in the words of al-Walid that he used in formulating his dialogues, from analogy to A metaphor to a metaphor for the use of all kinds of beautiful images... These rhetorical images provide beauty and associate it with persuasion.

The study proved that the development of argumentative research stems from the inspiration of the rhetorical heritage of the Arabs through the revival of the rhetorical heritage, and that Alwaleed is the first to notice the greatness of the Qur'an, and the first to testify to its miraculousness. And that Al-Walid possesses an argumentative mentality that enabled him to build his dialogue on an argumentative basis, capable of reaching the goals and objectives that he set from the beginning, which is to convince his people that what Muhammad says is magic, and Al-Walid bin Al-Mughirah received the punishment of audacity against God Almighty, so the Qur'an continued to pursue Al-Walid and his ilk in more than Once, in more than one surah, and in more than one style, which made him live the internal struggle.

Keywords: Hajjaj Al-Walid, the Holy Quran, Hajjaj between persuasion and enjoyment.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، أنزله بأفصح لسان، وأودع في آيه غرر البلاغة ودرر البيان، تحدى به قومًا ملكوا ناصية الفصاحة وفنون الكلام، فبهرتهم نغماته ومداته، وحركاته وسكناته، وسلاسة ألفاظه، وإحكام أساليبه حتى قال قائلهم: (والله إن للقول الذي يقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلى). والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فقد نزل القرآن الكريم على النبي ــ ﷺ ــ برهانًا على صدق دعوته، وقد بلغ غايةَ الفصاحة ونهايةَ البلاغة بين قوم، يُعرفون ببراعة البيان، وشدة العارضة، وكان الكلام البليغ أملك لنفوسهم، وأوقَعَ في قلوبِهم، فقد استحوذ القرآن الكريم على العرب وأجمع الكل على الانبهار به، ورغم ذلك انقسموا حوله كما ينقسم الناس في كل جديد يتصدى لواقع من الأمر يريد أن يبدله، ويحمل الناس على خلافه، فكيف إذا كان الجديد نقضًا صريحًا لعقيدة دينيه راسخة، وإبطالاً جازمًا لتقاليد موروثة متأصلة؛ لذلك كانت لديهم شبه حول القرآن وكانت وجوه شكوكهم مختلفة، وطرق شبههم متباينة، فمنهم من قَلَّتْ شبهه، وتأمل الحجة حق تأملها، ولم يستكبر فأسلم، ومنهم من كثرت شبهه، وأعرض عن تأمل الحجة، وأبتْ عليه العصبية في شدتها أن يؤمن، وهو الوليد بن المغيرة الذي حاول الافتراء علي القرآن الكريم، واستخدم في ذلك حججًا واهية وحاول إقناع أتباعه بأن يثبتوا للقرآن ما نفاه هو عن القرآن مستخدمًا أسلوب الحجاج الذي يستخدم عندما تستهدف توجيه المتلقي نحو نتيجة معينة أو صرفه عنها والتأثير فيه، ولا يمكن لأي مخاطب أن يستغني عن هذا الأسلوب الذي يهدف إلى استهواء المتلقي واستمالته، وهذا الأمر لا يكمن في المجال الأدبي فحسب، وإنما تجده في

حياتنا اليومية التي تبنى كليًا على الأدلة والحجج أثناء عملية التواصل، فالخطاب الحجاجي هو الركيزة الأساسية في إيصال الأفكار وتحقيق المقاصد بين "المتكلم والمتلقي"، وتجده يتضمن كل وسائل الإثارة والإقناع والتحاور(١).

والخطاب في حديث الوليد عن القرآن وإعجازه وبلاغته. خطاب حجاج، حيث يقصد إلى الإقناع وسوق الحجج والبراهين بتفوّق النص القرآني وإعجازه، فجاءت هذه الدراسة لتجلّي شيئًا من تقنيات الحجاج وأبعاده المختلفة في قول المغيرة عن القرآن ولإبراز اللغة الحجاجية البليغة التي استخدمها لإثبات أن القرآن ليس كهانة أو جنونًا أو شعرًا أو سحرًا.

•فجاء البحث بعنوان حجاج الوليد بن المغيرة (٩٥ ق هـ: ١ هـ) حول القرآن الكريم بين الإقناع والإمتاع؛ لذلك اتبعت الدراسة المنهج التحليلي، بهدف رصد الملامح الحجاجية في قول الوليد بن المغيرة عن القرآن.

وركزت الدراسة على بلاغة الجانب الاقناعي والحجاجي، الذي يظهر بصورة بارزة في حوار الوليد بن المغيرة مع زعماء قريش في أمر محمد ــ ﷺ ــ وما جاء به هذا الحوار الذي يحمل في طياته الكثير من الأسرار، وهذا ما دفعني إلى بحث هذه النقطة الغامضة في محاولة معرفة الإشكالية التي فحواها: هل كان هدف الوليد الإقناع أم الإمتاع؟ أم هما معا؟ كيف استخدم الوليد الحجاج في هذا الحوار؟ ما هي أنواع الحجاج المبثوثة في هذا الحوار؟ ما هي الروابط الحجاجية في هذا الحوار؟ كل هذه التساؤلات تفرض نفسها على البحث.

وقد استعنت في ذلك بدراسات سابقة يمكن عدها ركائز البحث، وعليها كان اعتمادي في الدراسة منها كتاب" أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم" إشراف دكتور حمادي صمود، وكتاب "الحجاج في الشعر العربي القديم، بنيته وأساليبه" للدكتورة سامية الدريدي، وكتاب "الحجاج في

(١) آليات الحجاج اللغوية في المثل الشعبي مقاربة تداولية حبيب الله منصوري، محمد بن سعيد، المجلد ١٠، العدد الثاني، يوليو ٢٠٢٠م كلية الآداب واللغات والفنون الجزائر.

القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية" للدكتور عبد الله صولة، وكتاب "استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية" للدكتور عبد الهادي بن ظافر الشهري. أما عن الدراسات التي تناولت قول الوليد عن القرآن فلم أجد في حد علمي دراسة تناولت مقولته بالدراسة البلاغية؛ لذلك تكمن أهمية البحث في الموضوع من كونه يتناول جانبًا مُهِمًّا من جوانب البلاغة وهو بلاغة الحجاج والاقناع، هذا الجانب المهم الذي لم يحظ بما حظي به قسيمه في البلاغة، وهو الجانب الجمالي البياني، حيث تجد الكم الهائل من الدراسات البلاغية الجمالية التي عنيت ببيان جماليات النص، أما بلاغة الإقناع فإن حظها من الدراسات دون ذلك بكثير.

وقد تكون البحث من مقدمة، وتمهيد وثلاثة مباحث: تناولت في المقدمة أسباب اختيار الموضوع وأهميته والمنهج المتبع والدراسات السابقة، وتناولت في التمهيد: تعريف المفاهيم المكونة للبحث، والتي يمكن أن تكون غامضة، فحاولت استعراض مفهوم الحجاج والإقناع والإمتاع والتعريف بشخصية الوليد بن المغيرة. ثم تطرقت في المبحث الأول إلى: الحديث عن الحجاج بين التراث والحداثة وأنواعه وأهميته وعلاقته بالبلاغة والاقناع. فجاء المبحث الأول بعنوان: نشأة الحجاج وعلاقته بالبلاغة وعلاقتهما بالإقناع

وبعد هذا المبحث النظري يأتي المبحث الثاني التطبيقي: ورصدت فيه مجمل الأساليب الحجاجية التي استخدمها الوليد في حواره مع قريش عن رسول الله ــ ﷺ ــ وعن القرآن الكريم فجاء المبحث الثاني بعنوان: حجاج الوليد بن المغيرة حول القرآن الكريم، أما المبحث الثالث: فكان بعنوان عقاب الوليد بن المغيرة بين سورتي المدثر والقلم.

وجاءت الخاتمة التي كانت بمثابة خلاصة لكل نتائج البحث.

التمهيد

الحِجَاجُ في اللغة والاصطلاح:

يقول ابن منظور عن الحِجَاج: حَاجَجْتُه أُحَاجُهُ حِجَاجًا ومَحَاجة حتى حَجَجْتُهُ وقَدْ حَجَّ بَنُو فُلان فلانًا إذا أطالوا الاختلاف إليه.

والحُجَّة :البُرْهَانُ؛ وَقِيلَ :الْحُجَّةُ مَا دُوفِعَ بِهِ الْخَصْمُ .أي غَلبته بالحُجج. وَقَالَ الأَزْهَرِيُّ: الحُجَّةُ الوَجْهُ الَّذِي يَكُونُ بِه الظَّفَرُ عِنْدَ الْخُصُومَة. وَهُوَ رَجُلٌ مِحْجَاجٌ أَيْ جَدِلٌ. والتَّحاجُّ: التَّخَاصُمُ، وَجمْع الْحُجَّةِ: حُجَجٌ وَحِجَاجٌ. وَحَاجَّهُ مُحَاجَّةً وَحِجَاجًا: نَازَعَهُ الحُجَّة، وحَجَّه يَحُجُّهُ حَجًّا: غَلَبَهُ عَلَى حُجَّتِهِ: "[1] وعرف الجرجاني الحجَّة بقوله: الْحُجَّةُ ما دل به على صحة الدعوى، وقيل: الْحُجَّةُ والدليل واحد" [2]

وأورد أبو هلال العسكري في تعريفها: الحجَّة هي الاستقامة في النظر والمضي فيه على سنن مستقيم من رد الفرع إلى الأصل، وهي مأخوذة من الحجة وهي الطريق المستقيم وتأثير الْحُجَّةُ في النفس كتأثير البرهان فيها وإنما تنفصل الْحُجَّةُ من البرهان لأن الْحُجَّةُ مشتقة من معنى الاستقامة في القصد، حَجَج يَحِج، إذا استقامَ في قصده [3].

الحِجَاجُ اصطلاحًا: عرفه ابن أبي الاصبع المصري بقوله: هو احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجَّة تقطع المعاند له فيه على طريقة أرباب الكلام[4]،

---

(١) لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم. محمد الشاذلي، ج ٤، القاهرة: دار المعارف، د.ت، مادة: (ح.ج.ج).

(٢) التعريفات للجرجاني، تحقيق: محمد على أبو العباس، باب الحاء فصل الجيم، مكتبة القرآن القاهرة ٢٠٠٣م ٨٧

(٣) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ضبطه وحققه : حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية بيروت ــ لبنان. ٥٣ بتصرف

(٤) بديع القرآن لابن أبي الاصبع المصري ــ تحقيق د/ حفني محمد شرف ط ٢، دار نهضة مصر للطباعة ٥٨٥.

وسماه بالمذهب الكلامي وذكره الإمام عبد القاهر الجرجاني بلفظ الاحتجاج العقلي. ويستنبط ذلك من قوله: (حيث يشهد العقل للحجَّة) [١]. والحِجَاجُ هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، ويتمثل في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها. [٢]

ويقول الباجي عن الحِجَاج: "تردد الكلام بين اثنين قصد كل واحد منهما تصحيح قوله، وإبطال قول صاحبه، والدليل ما صح أن يرشد إلى المطلوب وهو الحجة والسلطان والبرهان."[٣]

أما النقاد المعاصرون فرؤيتهم مشابهة لبعضها، يقول الدكتور طه عبد الرحمن:" كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها ."[٤]، فيثير هنا قضية أن الحجة تستلزم أن يكون لها نقيض، بذلك تتيح خيارات أمام المتلقي للاقتناع بها أو رفضها، وحتى يضمن الباث قبول حجته لابد أن يؤسسها على بناء قوي.

ويقول صابر الحباشة عن الحجة:" إنها تقوم على حسن توظيف الأساليب المتعلقة بأهداف المتكلم وبما يراه مناسبًا للمقام من تخير الحجج الفعالة والملائمة والتي تضمن تأثيره في الجمهور المستهدف "[٥]، والحجة قد تكون قابلة للدحض والنقض والجدل.

---

(١) ينظر: أسرار البلاغة، للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر ط الأولى، مطبعة المدني بالقاهرة ١٤١٢ هـ ١٩٩١ م. ٣٤٨.

(٢) ينظر اللغة والحجاج د/أبو بكر العزاوي، العمدة للطباعة، الدار البيضاء، المغرب ط١ ١٤٢٦هـ ٢٠٠٦ م. ١٦.

(٣) كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج، لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي،(ت٤٠٣ ـ ٤٧٤هـ) تحقيق: عبدالمجيد تركي، ط ٣، بيروت: لبنان دار الغرب الإسلامي، د.ت، ٢٠٠١ ، ٨.

(٤) ينظر: اللسان والميزان، أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن ط١، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي ١٩٩٨ ص ٢٢٦.

(٥) ينظر: التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، لصابر الحباشة ط١، صفحات للدراسات والنشر، دمشق: ٢٠٠٨م، ص: ٢٩.

ويقول جميل عبد المجيد عن الحِجَاج: "عملية اتصالية يستخدم فيها المنطق للتأثير في الآخرين "[١]

ويبدو أنه ليس كل عملية اتصال تعتمد على المنطق للتأثير، فهناك من يعتمد على المراوغة والعاطفة، ويرى عبد الهادي بن ظافر الشهري أن الحِجَاج هو" الآلية الأبرز التي يستعمل المرسل اللغة فيها وتتجسد عبرها استراتيجية الإقناع ." [٢]

ويرى بيرلمان أن" غاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان؛ فأنجح الحِجَاج ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب، أو هو ما وفق على الأقل في جعل السامعين مهيئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة "[٣]، فوظيفة الحِجَاج وغايته: دفع المتلقي للإذعان والتسليم على نحو يجعله يعمل بالفكرة التي اقتنع بها.

من خلال التعريفات السابقة يتضح أن مفهوم الحجاج من المفاهيم الصعبة والغامضة من حيث تحديد مفهومها، وذلك راجع إلى تشعب مجالات استعماله وحداثته، وهذا ما يجعل تحديد مفهوم دقيق له من الأمور الصعبة وحتى غير الممكنة، حيث تجد بعضهم يرى أن الحجاج في الدراسات الحجاجية يكون على ضربين أحدهما: أنت فيه لا تخرج من مجال المنطق وبذلك يكون مرادفًا للبرهان والاستدلال، والآخر: تكون فيه في مجال أوسع لأنه يشمل مجمل التقنيات البيانية التي تساعد على إذعان السامع أو القارئ،[٤] وهكذا تجد ضربين: أحدهما ضيق

(١) ينظر: البلاغة والاتصال، لجميل عبد المجيد، القاهرة : دار غريب للطباعة والنشر ، ٢٠٠٨ ص ١٠٥.

(٢) استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، لعبد الهادي بن ظافر الشهري ط١، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، د. ت ص ٤٥٦.

(٣) ينظر: مصنف في الحجاج، نقلا عن عبد الله صولة، مقالة: (الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته) ص ٢٩٩ ترجم عبد الله صولة هذه الحجج من كتاب برلمان وتيتيكا (مصنف في الحجاج : الخطابة الجديدة)

(٤) الحجاج في القرآن، من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد لله صولة دار الفارابي، ط١، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٠٨، كذلك: جمال حضري: المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ٢٠١٠، ص ٢٦١

يكون مرادفًا للاستدلال والبرهان، والثاني أوسع مجالًا حيث يكون علمًا مستقلًا يبحث في مجمل التقنيات والآليات التي يستخدمها المتكلم من أجل إقناع المتلقي بجدوى خطابه، وبهذا يكون " الحجاج أشمل وأوسع من الاستدلال البرهاني" (١)

تعريف (الإقناع) لغة واصطلاحًا:

الإقناع: هو مصدر الفعل أقنع، يقنع، إقناعًا بزيادة الهمزة على الأصل (قنع) التي وردت في المعاجم العربية بمعان عدة؛ منها ما ذكره ابن منظور في لسان العرب: قنع بنفسه قنعًا وقناعة: رَضِي بها، فلان مَقْنَعٌ في العلم وغيره، أي رضًا، وحكى ثعلب: رجل قُنْعان منهاة يُقنَع برأيه ويُنتهَى إلى أمره .أقنعني كذا أي أرضاني. (٢)، وجاء في المعجم الوسيط تعريف هو أقرب إلى الدلالة المعنوية لكلمة (إقناع)، وأكثر تحديدًا. جاء فيه اقتنع قنع، واقتنع بالفكرة والرأي أي: قبله واطمأن إليه .(٣)

اصطلاحًا: عَرَّفَ حازم القرطاجني الإقناع انطلاقًا من علاقته بعلم البلاغة، الذي يشتمل على صناعتي الشعر والخطابة، حيث يعد التخييل عماد الشعر، والإقناع عماد الخطابة، فقال: " لما كان علم البلاغة مشتملًا على صناعتي الشعر والخطابة، وكان الشعر والخطابة يشتركان في مادة المعاني ويفترقان بصورتي التخييل والإقناع، وكان لكلتيهما أن تتخيل وأن تقنع في شيء من الموجودات الممكن أن يحيط بها علم إنساني، وكان القصد في التخييل والإقناع حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده، أو التخلي عن شيء واعتقاده "(٤).

يفهم مما جاء على لسان القرطاجني أن الشعر والخطابة يلتقيان على مستوى المعاني وما تحدثه من آثار على نفوس المستمعين، إما إيجابية تدفعهم

---

(١) الحجاج في القرآن، ص ٠٩، وكذلك: الحواس مسعودي، النصوص الحجاجية، ضمن عدد (علم النص) مجلة معهد اللغة والأدب، ع١٤، ١٩٩٩، ص ٢٧٥.

(٢) لسان العرب، مادة (ق.ن.ع)

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، دار الدعوة.

(٤) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب بالخوجة، ١٨،١٩ط٢٠٠٨م

إلى قبول الشيء أو اعتقاده، وإما سلبية تجعلهم يتخلون عنه ويرفضونه، ويختلفان في كون الشعر يستعمل التخييل بينما تستعمل الخطابة الإقناع.

أما تعريف الاقتناع في الاصطلاح فهو عرض وجهة النظر بأسلوب منطقي أو أسلوب عاطفي يؤثر في الأشخاص المستمعين أو المستهدفين وهو العرض الشفهي لوجهة النظر أمام الآخرين من أجل نقل الأفكار والمعلومات(١).

إن من أبرز مقومات الخطاب الإقناعي الفصاحة في القول، والبراعة في العقل، والرجاحة في الحلم، والاتساع في العلم، والصواب في الحكم، والفهم والإفهام لكل غرض مقصود وتلك عدّة البليغ في الصدع بحجته في المقامات والأحوال التي تتطلب الإبانة والإفصاح، فيقرر الحقائق، ويثري المفاهيم، ويطور الأفكار، ويفض النزاع، ويحل الخلاف بوسائل اللغة الحية؛ رغبة في إقناع المتلقي والتأثير فيه .(٢)

يوجد فرق بين الإقناع والاقتناع يتضح بتأمل البنية الصرفية للمصطلحين، فالاقتناع مترتب على الإقناع؛ لأن الإقناع من الفعل المزيد المتعدي أقنع، فهو فعل واقع من فاعل على مفعول به المستهدف بالإقناع فإذا استجاب يكون قد اقتنع، أي تحقق له الاقتناع: الذي هو مصدر الفعل اللازم اقتنع، ومن البدهي أن يكون الاقتناع هو غاية الحجاج، وبمزيد من التأمل نجد الاقتناع هو غاية الإقناع(٣).

تعريف (الإمتاع) لغة واصطلاحًا:

الإمتاع: لغة يأتي من الجذر (م ت ع)، ومنها المتاع والتمتع والاستمتاع والتمتيع التي ذكرها الله تعالى في مواضيع كثيرة من كتابه كما جاء في لسان العرب، "ومعانيها وإن اختلفت راجعة إلى أصل واحد. قال الأزهري: فأما المتاع

---

(١) القاموس العربي الأول لمصطلحات علوم التفكير، عيسي سعد العوفي وعبد الرحمن علوي الجميدي دار ديبونو ط١ الأردن ٢٠١٩ ص ٥٨

(٢) البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، دار الفكر للجميع، ١٩٦٨، ١/١٣٠ بتصرف.

(٣) المغالطة الحجاجية في سياق الاستشهاد، تأصيل منهجي – أ. د. عيد بلبع سياقات اللغة والدراسات البينية المجلد الثاني (العدد الخامس) إبريل: ٢٠١٧

في الأصل فكل شيء ينتفع به ويُتبلَّغ به ويُتزوَّد... وأمتعه بالشيء ومتعه: ملأه إياه، وأمتعت بالشيء أي تمتعت به، وكذلك تمتعت بأهلي ومالي..." [١]

أما اصطلاحًا فلا يمكن الوقوف على تعريف دقيق للإمتاع الأدبي إلا في ارتباطه بمجموعة من المصطلحات التي تقرب معناه وتجليه، فقد ربطه البعض بالتخييل الذي يقصد به إعادة صياغة الأديب للواقع صياغة جديدة بعد أن يضفي عليها من خياله ما اكتسبه من تجاربه المتراكمة: " فالخيال بصورة عامة هو مجموعة صور وأفكار يتم الحصول عليها من الواقع عبر الأحاسيس والإدراكات، حيث يعاد ربط هذه الأمور وتكوينها في صورة جديدة تبعد عن الواقع الموضوعي الحقيقي عندها تسمى خيالًا، هذا من جهة، أما التخييل الشعري من جهة الخصوص: فهو قدرة الشاعر– من خلال المحاسن التأليفية– على تكوين صور ذهنية غابت عن متناول الحس، ولا تنحصر فاعلية هذه القدرة في مجرد اجترار الواقع، بل تتعدى ذلك إلى صياغته في صورة جديدة تنم عن إبداع الشاعر وقدرته على نقل أحاسيسه".[٢]

التعريف بالوليد بن المغيرة (٩٥ ق. هـ ١ هـ – ٥٣٠م – ٦٢٢م)

الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، أبو عبد شمس: من قضاة العرب في الجاهلية، ومن زعماء قريش ومن زنادقتها. يقال له: "وهو العِدْل"؛ لأنه كان عِدْل قريش كلها لأن قريشًا كانت تكسو البيت جميعها وكان الوليد يكسوه وحده. [٣] وكان ممن حَرَّم الخمر في الجاهلية، وضرب ابنه على شربها. وأدرك الإسلام وهو شيخ هرم، فعاداه وقاوم دعوته. قال ابن الأثير وهو

(١) لسان العرب، مادة (م.ت.ع)

(٢) التخييل الشعري وأثره في تحقيق أهداف التربية لدى الناشئة. مقال آدم محمد أبو القاسم عبد الله، كلية النيل الأبيض للعلوم والتكنولوجيا – جامعة السودان– مجلة العلوم الإنسانية والإقتصادية، العدد الثاني، المجلد١٣

(٣) ينظر: الكامل في التاريخ للشيباني تح: عبد الله القاضي١/ ٢٦٣، دار الكتب العلمية، بيروت: الطبعة الثانية ١٤١٥هـ

الذي جمع قريشا وقال: " إن الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد ـ ﷺ ـ، فتختلف أقوالكم فيه، فيقول هذا كاهن، ويقول هذا: شاعر، ويقول هذا: مجنون، وليس يشبه واحدًا مما يقولون ولكن أصلح ما قيل فيه (ساحر) لأنه يفرق بين المرء وأخيه والزوج وزوجته" وهلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر، ودفن بالحجون. وهو والد سيف الله: خالد ابن الوليد [١]. وكانت مكانته كبيرة جدًا في الجاهلية، كان سيدًا في قومه وصاحب رأي وبصيرة، وكان الوليد يكنى أبا عبد شمس، كان الوليد يقول: أنا الوحيد ابن الوحيد، ليس لي في العرب نظير، ولا لأبي المغيرة نظير، وكان يسمى الوحيد.[٢]

كان الوليد بن المغيرة سيدًا من سادات قريش عظيم المال والجاه وله عشرة أبناء. وكان الوليد يسمى الوحيد، لأنه وحيد قومه لكثرة ماله وعظيم جاهه[٣]. وهو أول من صعد الكعبة من قريش حين هدمتها قريش. الوليد بن المغيرة. وأول من ترك دخول الكعبة بنعل في الجاهلية [٤]

ويروي الفاكهي أيضًا: حدثني أبو سعيد عبد الله بن شبيب، قال حدثني ابن الهشامين، قال: أخبرني أشياخي، قالوا: كان الوليد بن المغيرة أول من خلع نعليه لدخول الكعبة....؛ وأول من جلد في الخمر، .... ، وأول من قطع في السرقة في الجاهلية، ....، وكان يقال: لا وثوبي الوليد الخلق منها والجديد.[٥]، وقد حكم الوليد بتحريم الخمر، والمنع من نكاح المحارم، والنهي عن قتل الموءودة،

---

(١) الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، تأليف خير الدين الزركلي دار العلم للملايين، الطبعة السابعة: بيروت، انظر:ج ١٣/ ١٢٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي دار الشعب: القاهرة، انظر: ج ٧١/١٩

(٣) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، لأبي بكر الجزائري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية ط٥ ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، انظر: ج٥٣٨٤/١

(٤) ينظر: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، للفاكهي، تح د. عبد الملك عبد الله دهيش دار خضر بيروت ط٢ ١٤١٤هـ انظر: ج٢٥١/٥

(٥) ينظر أخبار مكة للفاكهي ٥ج/ ٢٣٩ .

وتحريم الزنا، وأن لا يطوف إنسان بالبيت عريان[١]، قال صاحب الأغاني أبو الفرج: أنه لما مات الوليد بن المغيرة بن عبد عمرو بن مخزوم أَرَّخَت قريش بوفاته مدة لإعظامها إياه، حتى إذا كان عام الفيل جعلوه تاريخًا. [٢]

وكان الْوَلِيدُ بْنَ الْمُغِيرَةِ يجلس بذي المجاز فيحكم بين العرب أيام عكاظ، كانت قريش تسمي المسلمين قبل الهجرة الصُّبَاة. ويقولون نخاف أن يَصْبُو الوليد بن المغيرة إلى دين محمد ــ ﷺ ــ ولئن صَبَا الوليد، وهو ريحانة قريش، لتصبون قريش بأجمعها. [٣]

وقال المفسرون في تفسير قوله تعالى: (وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ) (سورة الأنعام:١٢٤)، يَعْنِي: مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ مِنَ النُّبُوَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ قَالَ: لَوْ كَانَتِ النُّبُوَّةُ حَقًّا لَكُنْتُ أَوْلَى بِهَا مِنْكَ، لِأَنِّي أَكْبَرُ مِنْكَ سِنًّا وَأَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ". [٤]

وسبب وفاته أن جرحٍ قد أصابه، بأسفل كعب رجله، وبقي معه سنين حتى قتله، وكان ذلك الجرح قد أصابه بسبب إصابة رَجُل من خُزَاعة له بِنَبل، فتعلق سهم من نبله بإزاره، فخدش رجله فأصابه وكان ذلك سبب موته، وقد مات الوليد بن المغيرة بعد الهجرة بثلاثة أشهر وعمره خمسة وتسعون، ودفن في الحُجُون بمكة. [٥]

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د/ جواد على،دار الساقي الطبعة الرابعة ١٤٢٢هـ٢٠٠١م انظر: ج١٠/ ٣٢١.

(٢) الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي تح أحمد الأرناؤوط دار إحياء التراث بيروت: ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠م، انظر: ج١/ ٤.

(٣) انظر شرح نهج البلاغة ، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ٦/ ٣٩٠ ، دار حياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي.

(٤) معالم التنزيل في تفسير القرآن، لمحي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت:٥١٠ه) تحقيق: محمد عبد الله النمر، وآخرين، طبع: دار طيبة للنشر والتوزيع ١٩٩٧م (٨ أجزاء) انظر: ج٣ ص: ١٨٥، وانظر: البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي، (ت:٧٤٥ه) تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيرت،: ١٤٢٠ ه، ج٤ص:٦٣٧.

(٥) ينظر سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي تح عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض ٢/ ٤٦٣ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ.

المبحث الأول: نشأة الحِجَاج وعلاقته بالبلاغة وعلاقتهما بالإقناع

الحِجَاج بين التراث والحداثة:

الحِجَاج في التراث:

كان الحِجَاج موجودًا منذ العصر الجاهلي، فالعرب قد عرفوه منذ القدم، واستخدموه في التعبير عن أغراضهم ومقاصدهم، وفي أشعارهم وخطبهم من أجل إقناع المتلقين لخطاباتهم، وإن لم يضعوا له مصطلحًا محددًا. فلو طالعت كتب البلاغة العربية منذ القدم، لوجدت بها هذا المصطلح؛ لأنه يخضع لعاملين هما: (لكل مقام مقال، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال)، وكل ذلك مراعاة لأصول الكلام والجدال والحِجَاج؛ فيأتلف ما قد اختلف، فمراد أي تواصل إقناع الآخر بصدق دعواه واستمالته والتأثير عليه، وقد حفلت البلاغة العربية بمصطلحات تدل على وجود الحجاج، حيث استخدموا مصطلحات مقاربة لمعنى الحِجَاج منها الجدل[١]، البرهان[٢]، المناظرة،[٣] الاحتجاج[٤]، حسن التعليل، حسن التفسير، المذهب

---

(١) الجدل والمجادلة: هما قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه ويستعمل في المذاهب، والديانات، وفى الحقوق، والخصومات، والتنصل في الاعتذارات ويدخل في الشعر وفى النثر، وهو ينقسم قسمين: أحدهما محمود، والآخر مذموم فأما المحمود فهو الذى يقصد به الحق ويستعمل في الصدق، وأما المذموم فما أريد به المماراة والغلبة.: نقد النثر: أبو جعفر قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي. حققه وعلق حواشيه د/ طه حسين بك، عبد الحميد العبادي، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٨ص ١١٧

(٢) البرهان: هو استدلال ينتقل فيه الذهن من قضايا مسلمة إلى أخرى تنتج عنها ضرورة وعده المناطقة القدامى أسمى صور الاستدلال لأنه يقوم على أساس من مقدمات يقينية وينهى تبعًا لذلك إلى نتائج يقينية. مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية القاهرة، ١٩٨٣. ص ٤٠

(٣) المناظرة نظر" الشيء بالشيء : ناظره به، و"تناظر" القوم: نظر بعضهم إلى بعض، وتناظر في الأمر: تجادلوا وتراوضوا ويقال: دورهم تتناظر: تتقابل. معجم الوسيط: مجمع اللغة العربية مكتبة الشروق الدولية، ط٤ ٢٠٠٤ ص٩٦٢

(٤) الاحتجاج: هو إيراد الحجج المثبتة لدعوى المتكلم ويكون تحليليًا إبهاميًا أو عمليًا وقد يوصف بأنه عقلي وصريح: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله رضوى الرقبى، عالم الفكر، العدد ٢، المجلد ٤٠ أكتوبر، ديسمبر ٢٠١١ ، ص ٧٢

الكلامي، وآداب الحوار وآداب الحديث، حيث تقاربت معاني تلك المصطلحات مع الحجاج والإقناع؛ فلهذا تجد أن النصوص القديمة لم تخل من هذا العنصر الفعال.

الحِجَاج في القرآن الكريم:

ذكر القرآن الكريم هذا المصطلح في آيات كثيرة –بلغت خمس عشرة آية من آيات الذكر الحكيم– ومواقف عديدة، واتسع لمشاهد كاملة بين الأنبياء والمعاندين من قومهم، كالذي دار بين سيدنا موسى وفرعون، وسيدنا عيسى وبني جِلْدته، وكذلك كان الشأن مع سيدنا محمد ــ ﷺ ــ وقومه. كما ورد حكاية عن قصة سيدنا إبراهيم مع النّمرود، وكيف أدى به في النهاية إلى الإذعان والتسليم قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (سورة البقرة :٢٥٨) وقد فسر هذه الآية محمد الطاهر بن عاشور بقوله: " معنى حَاجَّ خاصم وهو فعل جاء على زنة المفاعلة ولا يعرف لـ(حَاجَّ) في الاستعمال فعل مجرد دال على وقوع الخصام ولا تعرف المادة التي اشتق منها، ومن العجيب أن الحجة في كلام العرب البرهان المصدق للدعوى مع أن حَاجَّ لا يستعمل غالبًا إلا في معنى المخاصمة وأن الأغلب أن يفيد الخصام بباطل"[(١)] وتجد أن الطاهر بن عاشور جعل معنى حَاجَّ في الآية بمعنى المخاصمة، وتكون هذه المخاصمة بباطل وليس بحق، كما بيَّن أن الجدل هو القدرة على الخصام لتقنع به غيرك.

(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور : نقلا عن عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي ، بيروت ، ط ٢٢٠٠٧ ص ١١

الحِجَاج في الحديث النبوي الشريف:

وتجد أيضًا أن الحِجَاج قد ورد في الحديث النبوي الشريف ومن أشهر ما يستدل به حديث الرجل الذي جاء إلى الرسول ــ ﷺ ــ ناكرًا لون ولده ، حيث أَخْرَجَ البخَارِيُّ في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ــ ﷺ ــ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلاَمًا أَسْوَدَ، فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «مَا أَلْوَانُهَا» قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَنَّى كَانَ ذَلِكَ» قَالَ: أُرَاهُ عِرْقٌ نَزَعَهُ، قَالَ: «فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ عِرْقٌ»"[1] وبهذا يتبين استدلال الرسول ــ ﷺ ــ وهو الذي علينا اتباعه والامتثال لأوامره من غير أن نطالبه بدليل، فهو يبين لنا الأدلة ويرتبها حق ترتيبها [2]

الحجاج في البلاغة العربية:

لقد استعمل أقطاب البلاغة الحِجَاج ووظفوه في مؤلفاتهم، وشَكَّل بنية أساسية في إبداعاتهم ومنهم:

الجاحظ: **ت٢٥٥هـ**:

كان للجاحظ السبق في استخدام الحِجَاج في مواقف كثيرة من كتابه، فقد بناه على الحِجَاج وعلى نظرية البيان، التي كان أساسها استعمال الحِجَاج لإقناع المخاطب حيث تجده في كتابه "البيان والتبيين"، قد تناول فصولًا كثيرة فيما يتعلق بالحِجَاج ويستعمل عدّة تسميات تماثل ما عُرف اليوم بنظرية الحِجَاج. ومن ذلك إيراده مصطلحات كـ "الخصومة، و منازعة الرجال، ومناقلة الأكفاء ومناضلة الخصوم بل جعل الاحتجاج وجهًا من وجوه البلاغة، إذ يقول: "البلاغة اسم جامع

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الحدود، بَابُ: مَا جَاءَ فِي التَّعْرِيضِ، الحديث رقم:٦٨٤٧، وقوله: (رجلاً) هو ضمضم بن قتادة رضي الله عنه. وقوله: (أوْرَق) الأغبر الذي في لونه بياض إلى سواد. وقوله: (نَزَعه عِرْق) جذبه إليه وأظهر لونه عليه فأشبهه، والعرق: الأصل من النسب.

(٢) التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، عن علي الإدريسي: في تأسيس الحجاج لدى مفكري الإسلام ص ٨٣ ، ومناظرات رقم ١٣٤، الرباط ، ندوات٢٠٠٦ .

لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا ..."، [١]. ثم أشار إلى أبرز مقومات الحِجَاج البلاغي العقلي المتمثلة في شدة العارضة، وظهور الحجة، وثبات الجنان، وكثرة الريق، والعلو على الخصم، حيث فصل الحديث فيما يخص الخطيب من أمور خِلقية وخُلقية، والتي لها أثر على نجاعة خطابه ووصوله إلى الجمهور، حيث يقول: " أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة. وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأَمَة ولا الملوك بكلام السوقة. ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة [٢]". وتحدث الجاحظ عن العوامل الحجاجية الأساسية، وهي مبدأ مراعاة المقام ومقتضى الحال؛ حيث يصرح الجاحظ قائلًا: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، ولكل حالة من ذلك مقامًا، حتى يُقَسِّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويُقسِّم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات، فالاطِّلاع الجيد على حال المخاطَب النفسية والعلمية والعقدية والثقافية ستساعد الخطيب كثيرًا في حجاجه، لأنّه يقدر حينها على ولوج عقل الخصم بأيِّ حُجَّة مناسبة لمقامه، كاستعماله الحُجَج المنطقية العقلية مثلًا أو البلاغية الجمالية أو الأدلةّ النقلية تبعاً لفكر الذي يخاطبه، يقول الدكتور ظافر الشهري" فالحِجَاج كان الإستراتيجية المستخدمة في جميع المجالات المعرفية، وخير من طبق هذه الإستراتيجية في تراثنا العربي الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين " [٣].

---

(١) البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر للجميع ، ١٩٦٨م ،٨٢/١.

(٢) البيان والتبيين ،٦٧/١.

(٣) استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية عبد الهادي بن ظافر الشهري: دار الكتاب الجديد بيروت لبنان ط الأولى ٢٠٠٤م ، ص٤٤٨، ٤٤٩.

ابن المعتز: ت٢٩٦هـ:

تحدث عن الحِجَاج في كتابه: (البديع) ولكن سماه: المذهب الكلامي وهو قريب من الحِجَاج حيث عرفه بقوله: " وهو مذهب سماه عمرو الجاحظ المذهب الكلاميّ. هو إيراد الحجّة على المطلوب على طريقة أهل المنطق، وهو أن تكون المقدّمات مستلزمات للمطلوب" وهذا نوع من الحِجَاج المنطقي(١) .

ابن وهب: ت ٣٣٥هـ

وهو يستعمل مصطلح الجدل والمجادلة فهما قول يقصد به إقامة الحجّة فيما اختلف فيه المتجادلين، ويستعمل في المذاهب والديانات وفي الحقوق والخصومات والتنصل والاعتذارات ويدخل في الشعر وفي النثر، مما يجعل الاحتجاج من أنماط النثر يقول: "فأما المنثور أن يكون خطابة أو ترسلًا أو احتجاجًا" وقسم الجدل إلى قسمين، أحدهما محمود والآخر مذموم، فأما المحمود فهو الذي يقصد به الحق ويستعمل في الصدق، وأما المذموم فما أريد به المماراة والسمعة، وقد جاء في القرآن الكريم مدح ما هو محمود، وذم ما هو مذموم، كما بيَّن أيضًا أن العلماء وذوي العقول من القدماء قد اهتموا بقيمة الاحتجاج وإقامة الحجة، حيث قال: " وقد أجمع العلماء وذوو العقول من القدماء على تعظيم من أفصح عن حجته، وبيَّن عن حقه"(٢).

أبو هلال العسكري: ت٣٩٥هـ:

أما أبو هلال العسكري فيذكر في كتابه، (كتاب الصناعتين) أن المتكلم المدافع عن الإعجاز ينبغي أن يتصف بـ"حسن مناظرته، وتمام آلته في مجادلته، وشدّة شكيمته في حِجَاجه، ثم يشير إلى أعلى مراتب البلاغة قائلًا: " فأعلى رتب

---

(١) البديع في البديع المؤلف: أبو العباس، عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي (المتوفى:٢٩٦هـ) الناشر: دار الجيل، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ -١٩٩٠م ص١٤٧.

(٢) البرهان في وجوه البيان لأبي الحسين إسحاق بن وهب تقديم وتحقيق : حفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، عابدين، مصر، ص ١٧٦ــ١٧٧

البلاغة أن يحتجّ للمذموم حتى يخرجه في معرض المحمود، وتجده قد ربط الحِجَاج بالشعر، لأن الشعر له وظيفة حجاجية كبيرة؛ لأن الشاعر يقول كلامًا يحس به ويشعر به دون غيره؛ لذلك فهو يريد أن يصل إلى مرام وأهداف حجاجية من خلال شعره يقول أبو هلال العسكري: " وهو الذي يملك ما تُعْطَفُ به القلوب النافرة، ويؤنس القلوب المستوحشة وتلين به العريكة الأبية المستعصية، ويبلغ به الحاجة وتقام به الحجة"(١).

فالشعر هو الفن الأساسي الذي تقام به الحُجَج، والشعر قد ينهض بوظيفة الحِجَاج وليس بوظيفة الجدل، كما تكلم أيضًا عن قضية المقام وكيف يضطلع في الحِجَاج، ويذكر مصطلحين هما الاستشهاد والاحتجاج، و" هو أن تأتي بمعنى ثمّ تؤكِّده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأوّل والحجّة على صحته"، وهكذا تتجلى الوظيفة الحجاجية في هذا التعريف للعسكري الذي لا يختلف عن تعريف الحِجَاج المعاصر إلا في الصياغة اللغوية. فالحِجَاج البلاغي ذو وظيفة علمية عقلية تتمركز حول إثبات الحقائق وتقريرها، ووظيفة فنية جمالية تتمركز حول جمال النسج، وحسن التحبير، ويخضع في كلا الوظيفتين لمراعاة مقامات السامعين، وهذا ما تجده عند الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه:(دلائل الإعجاز)، إذ أبان من خلال دفاعه عن إعجاز القرآن، وإثبات نظرية النظم، أن الحِجَاج ممارسة عقلية تأثيرية تفاعلية، فأي تفاعل لفظي في سياقات الكلام يثري المفاهيم، ويطور المعارف، وينمي العلوم فهو حِجَاج، يقول: وغاية كل حِجَاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها، أو يزيد من درجة ذلك الإذعان، فأنجح الحِجَاج ما وُفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين(٢).

(١) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ، بيروت٢٠٠٦ ، ص ٤٩ . بتصرف

(٢) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، مرجع سابق، ص ٢٧ .

ابن حزم الأندلسي: ت ٤٥٦هـ

انشغل كثيرًا بالحِجَاج وهذا ما تلقاه في موسوعته " الفصل في الملل والأهواء والنحل"، إذ تجد في الكتاب فصولًا حجاجية بغض النظر عن ضعفها وقوتها. فقد زخرت كتاباته الفلسفية بطابع حجاجي، حتى أصبح يلقب بالمفكر الحجاجي، بدليل أنه كان لا يهدأ من السجال والحجاج والجدال بالمناظرات لدرجة أنه يناظر كل شخص يقابله، لأن المناظرة والحجاج هي الحد الفاصل بين الصدق والكذب، فقد اشتهر بالجدال العنيف، فلم يكن مناظرًا من أجل المناظرة بل كان مساهمًا في بناء الحقيقة، فقد تميز بنزعة نقدية عقلانية تتمسك بالنص. (١).

ابن الأثير: ت٦٣٧هـ

ذكر مصطلح: (الاستدراج) وقال: إنّه مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال. والكلام فيه، وإن تضمّن بلاغة فليس الغرض ههنا ذكر بلاغته فقط، بل الغرض ذكر ما تضمّنه من النُكت الدقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، وإذا حقّق النّظر فيه علِم أن مدار البلاغة كلها عليه، لأنّه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها ... فإذا لم يتصرف الكاتب في استدراج الخصم فليس بكاتب ولا شبيه له إلا صاحب الجدل، فكما يتصرف في المغالطات القياسية فكذلك هذا يتصرف في المغالطات الخطابية، وقد جعل ابن الأثير فنّ الاستدراج في الكلام مباينًا لبلاغته، ويقصد بالبلاغة هنا الجانب الفني الجمالي للكلام، فرأى أنّ الأسلوب الفني في الكتابة دون غاية الإقناع وحمل المتلقي على الإذعان لا طائل من ورائه، بل جعل لبّ البلاغة في الاستدراج أي الحِجاج الحامل على التسليم والقبول برأي الكاتب أو الخطيب، ولا ينفي قيام الحجاج البلاغي على المغالطات الخطابية. كما قام الجدل على المغالطات القياسية(٢)

---

(١) ينظر: التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه وضوابطه، حمو النقاري ابن حزم فارس الحجاج في الأندلس، الناشر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط طبعة أولى ٢٠٠٦م ص ١٢٧.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ضياء الدين ابن الأثير ت ٦٣٧هـ – تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة ٢٠٥/٢

حازم القرطاجني: ت٦٨٤هـ.

أما حازم القرطاجني فإن أهم ما جاء به في كتابه " منهاج البلغاء وسراج الأدباء " أنه أورد الحِجاج على أنه من أوجه الكلام؛ إذ يقول: " لما كان كل كلام يحتمل الصدق والكذب، إما أن يرد على جهة الإخبار والاقتصاص، وإما أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال.

يفهم من كلامه أنه ميز بين نوعين للكلام بين الإخبار والاقتصاص وبين الاحتجاج والاستدلال. كذلك تمييزه بين طريقتين لإقناع الخصم وهما التمويهات والاستدراجات، وهما من الاستراتيجيات المهمة في عملية الإقناع، يقول حازم في ربطه التمويهات بالاستدراجات: " أن كلًا منهما قد يوجد في كثير من الناس بالطبع والحنكة الحاصلة باعتياد المخاطبات التي يحتاج فيها إلى تقوية الظنون ما أنه على غير ما هو عليه بكثرة سماع المخاطبات في ذلك والتدرب في احتذائها " وفي تمييزه بين هاتين الإستراتيجيتين يقول: " التمويهات تكون فيما يرجع إلى الأقوال، والاستدراجات تكون بتهيؤ المتكلم بهيئة من يقبل قوله، أو باستمالته المخاطب واستلطافه له بتزكيته وتقريظه، أو بإطبائه إياه لنفسه وإحراجه على خصمه، حتى يصير بذلك كلامه مقبولًا عند الحكم، وكلام خصمه غير مقبول[١]

يوافق القرطاجني ابن الأثير في أنّ الغاية الحجاجية من الكلام الشِّعري والخطابي هي الغاية الأسمى للخطيب والشاعر، لأنّ الهدف هو التأثير في المتلقّي بوسائل البلاغة المعلومة شعرية كانت أو خطابية. فيقول: " قد تقدّم أنّ التخييل هو قوام المعاني الشعرية والإقناع هو قوام المعاني الخطابية واستعمال الإقناعات في الأقاويل الشعرية سائغ ....، كما أنّ التخييل سائغ استعماله في الأقاويل الخطابية ...، وإنّما ساغ لكليهما أن يستعملا يسيرًا فيما تقوم به الأخرى، لأنّ الغرض في الصناعتين واحد وهو إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحل

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء حازم القرطاجني: تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الغرب الإسلامي، لبنان، بيروت ط ٣ ، ١٩٨٦، ص ٦٣

القبول لتتأثّر بمقتضاه " [١]، واستعمل القرطاجني المصطلح المرادف للحجاج وهو الإقناع، فحاول أن يحدد موقعه من البلاغة بشطريها الفني والخطابي. وهو يرى أنّ الإقناع سمة بارزة في الكلام الخطابي ولا مانع من استعمال الأسلوب التخييلي الجمالي في الخطاب الإقناعي، أي استعمال الصورة البلاغية كحجّة إقناعية، فالغاية في رأيه من الكلام أيا كان فنُّه هي الإقناع أولًا وآخرًا مع تباين في الوسائل اللسانية والبلاغية. وهكذا تمنح البلاغة الخطاب الحجاجي بعدًا إقناعيًا . فالأساليب البلاغية قد يتم عزلها عن سياقها البلاغي لتؤدي وظيفة لا جمالية، بل تؤدي وظيفة إقناعية استدلالية، ومن هنا يتبين أن معظم الأساليب البلاغية تتوفر على خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية ولإنجاز مقاصد حجاجية [٢]

الحِجَاج حديثًا:

بالنظر إلى الدراسات الحديثة والمعاصرة، يظهر أن الجهود التي استثمرت في مجال الحِجَاج لا تعد ولا تحصى، حيث أصبح من أكثر المجالات ثراءً في البحث والتطبيق، فقد أفردت له عدة دراسات بشكل مستقل اهتمت بالبحث في بنيته وأساليبه، حاولت إسقاطه على النتاج الأدبي وهذه الأبحاث والأعمال التطبيقية لم تقتصر على البحث النظري، بل تجاوزت ذلك إلى محاولة فحص استراتيجية الإقناع في الخطابات[٣]، ومن ثم قاموا باستنباط القواعد والأسس النظرية التي اعتمد عليها الحِجَاج، وحاولوا تطبيقها على النتاج الشعري والنثري على حد سواء، وبعد ذلك حاولوا بناء نظرية حجاجية لها قواعدها وأسسها. وسوف يقتصر الحديث عن الحِجَاج عند بعض الباحثين العرب منهم:

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ٦١

(٢) التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صابر الحباشة، صفحات للطباعة والنشر، سورية ، ط ١، ٢٠٠٨ ص٥٠

(٣) استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية عبد الهادي بن ظافر الشهري: دار الكتاب الجديد المتحدة بيروت لبنان ط الأولى ٢٠٠٤م ص ٤٥٣.

الدكتور طه عبد الرحمن:

تميزت نظرته للحجاج بطابع فلسفي لأنه يستند إلى المنطق فقد زاوج بين القديم العربي والحديث الغربي، فتجده قد عقد بابًا في كتابه " اللسان والميزان " سماه " الخطاب والحجاج " ، فهو يرى أن الأصل في تكوثر الخطاب هو صفته الحجاجية، بناء على أنه لا خطاب بغير حجاج(١)، كما عرف الحِجَاج انطلاقًا من مبدأين أساسيين هما (قصد الادعاء، وقصد الاعتراض) يقول:" إذ حد الحِجَاج أنه كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها (٢)، ومن ثم يؤكد على أنه "لا خطاب بغير حجاج، ولا مُخاطِب من غير أن تكون له وظيفة المدعي، ولا مخاطَب من غير أن تكون له وظيفة المعترض، فالحِجَاجَ هو عملية فكرية ذات هدف إقناعي؛ ومن ثم فإنه خطاب موجَّه للتأثير على آراء المخاطب وسلوكياته للحصول على عمل ما أو الإعداد له، كما استعرض أيضًا أنواع الحجج، وأصناف الحجاج، وركز على السلم الحجاجي بوصفه عمدة في الحجاج، كما درس الاستعارة من وجهة نظر حجاجية مؤصلًا لها كما وردت عند الإمام عبد القاهر الجرجاني وأورد كذلك في كتابه " في أصول الحوار وتجديد علم الكلام "خاصية أخرى للحجاج وهي الحوارية، وقد جعلها في مراتب ثلاث هي الحوار، المحاورة، التحاور. كما عالج أيضا المنهج الكلامي في ممارسة المتكلمين للحوار (٣)

الدكتور " أبو بكر العزاوي"

يعد الدكتور أبو بكر العزاوي من أصحاب المشاريع الجديدة للدراسات اللغوية والحجاجية، بحكم انفتاحه على النظريات الغربية. وتجد من أهم مشاريعه

---

(١) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩٨، ص ٢١٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٦.

(٣) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، د. طه عبد الرحمن المركز الثقافي العربي، ط ١، ٣٢٢.

الحجاجية مجموعة من الكتب والمقالات، ومن بين أهم كتبه اللغة والحجاج " فقد حاول الإحاطة بتحديدات أساسية لنظرية الحجاج اللغوية. ويرى أن نظرية الحجاج ليست مقرونة بالبدايات الكلاسيكية للبلاغة الأرسطية، كما اعتبر أن المراد من مفهوم الحِجَاج هو ما أسس على بنية الأقوال اللغوية وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب، وأثار أيضًا في مبحث من مباحثه نظرية السُّلَّم الحجاجي، الذي عن طريقه يمكن تحديد قيمة القول الحجاجية، ثم انتقل إلى إثارة موضوع الروابط والعوامل الحجاجية ومدى تعلقها بالمبادئ الحجاجية وأعطى أمثلة بروابط وعوامل حجاجية من اللغة العربية. كما أفرد جانبًا للحديث عن الاستعارة والحجاج، وقد هدف إلى مقاربة الاستعارة من منظور الحِجَاج. (١)

الدكتور: محمد العمري

تحدث العمري في كتابه (البلاغة الجديدة بين التداول والتخييل)، عن الحِجَاج كمشروع للبلاغة الجديدة في سبيل الوصول إلى بلاغة عامّة تجمع الصناعتين الشعر والنثر، يبدأ العمري في تحليل الموقف الخطابي منطلقًا من موقع المتلقي الذي يعتبر ركيزة مهمة في البلاغة المعاصرة، يقول: "...وباختصار فإنّ أي مستمع له وجهة نظر ... ولا أرى بوسعنا أن نغير وجهة النّظر هذه بدون بلاغة، أي بدون اللُّجوء إلى الإثارة والتهييج بقدر لجوئنا إلى العقل"، فكلٌ ملفوظ أو مكتوب يتوجّه به صاحبه إلى متلقٍ عاقلٍ له آراءه وأفكاره التي يعتقدها، فيحاول المرسل أن يستميله إلى رؤى جديدة، ولا مناص – حسب الباحث – من استعمال الوسيلة البلاغية الحجاجية التي تواجه العقل بالحجج المنطقية وتثير النّفس وتُهَيِّجَ المتلقّي بالصُّور الإقناعية المتاحة على اختلاف أشكالها. فالدكتور العمري قد نظر للحجاج بطابع إقناعي، وهذا تأثرًا بالفلاسفة اليونانيين وتجده واضحًا في كتابه (في بلاغة الخطاب الإقناعي)، إذ يقول:" لقد حمل

(١) ينظر اللغة و الحجاج ، د. أبو بكر العزاوي العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٦ ، ١٤ وما بعدها.

أفلاطون في محاوراته على الخطابة لاهتمامها بالإقناع بدل البحث عن الحقيقة، كما اعتمد أيضًا على الدعائم الأرسطية لبلاغة الخطاب، والذي يربطها أيضًا بالإقناع، فبلاغة الخطابة أصبح لها دورًا فعالًا ومهمًا في التأثير في أحوال الناس، وقد ركز على المقام خصوصًا في الخطابة السياسية وهي محاورة بين الأنداد ويكثر فيها النصح والمشاورات ... والخطابة الاجتماعية وتكون فيها خطب في موضوعات اجتماعية تتناول العلاقة بين الناس وتنظيم المجتمع، وخطب ذات طبيعة وجدانية هدفها المشاركة في المسرات والأحزان ... وتعتمد على الحجج المقنعة والأسلوب الجميل والمؤثر(١).

يحاول العمري أن يسير على خطى البلاغيين القدامى (عربًا وغربًا) أن ينظر إلى بلاغة الخطاب ولا يأتي بمخالفة الأوائل فالتزم بالإقناع (الحجاج) كنظرية بلاغية بل وجعل الحِجَاج هو السِّمة المميزة للخطاب البلاغي دون غيره ممّا ليس بلاغيًا. فيستعمل في الخطاب المقنع البنية المنطقية واللغة الإخبارية الحاملة للفكرة، بالإضافة إلى لغة تخييلية تأثيرية وهما من خصائص الأسلوب الفني الاقناعي في آنٍ واحد وخلاصة بحث العمري أنّ البلاغة العامّة – بعناصرها الفنية الجمالية من وجه والإقناعية المنطقية من الوجه الآخر– هي اجتماع الوجهين في النصِّ البلاغي (خطابًا أو شعرًا) فيقول: " أعتقد في جميع الأحوال أنّي بينت كيف أنّ القدماء لم يخطئوا حين وحّدوا في مجموع واحدٍ بين البلاغة والعناصر العقلية للحجاج بمكوناته الوجدانية والجمالية.

هذا هو ما ذكره العلماء القدماء بل واستخدموه في كلامهم؛ لذلك عدت الدراسات الحديثة في مجال الحجاج امتدادًا للموروث البلاغي الكبير، وتحولًا

(١) في بلاغة الخطاب الإقناعي محمد العمري: مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، دار الثقافة ١٩٨٦، الدار البيضاء،٩، وينظر: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول د. محمد العمري، دار إفريقيا الشرق ٢٢٠

لوجهته في الآن ذاته، إذ أنه حقل دراسي أخذ من الموروث مادته، وانطلق نحو البحث والتجدد[١]

من خلال نظرة القدماء والمحدثين للحجاج يمكن القول أن الحِجَاج جنس خاص من الخطاب، يعرض فيه المتكلم دعواه مدعومة بتبريرات وتعليلات، عبر سلسلة من الأقوال. ويمكن من خلال هذه التعريفات للحجاج عند العرب قديمًا وحديثًا أن يستنتج الخلاصات التالية:

-الحِجَاج يهدف إلى تأسيس موقف معين، ومن هنا فهو يتجه إلى متلقي.

-الحِجَاج الحجاج يعتمد على تقديم عدد كبير من الحجج المختارة اختيارًا جيدًا، لتترك أثرها في المتلقي وهذه الخاصية تجعله يتميز عن البرهنة.

-الحِجَاج يتعلق بالخطاب الطبيعي.

-الحِجَاج يهدف إلى جعل العقول التي يتوجه إليها تنخرط في الخطاب الموجه لها.

-مجال الحِجَاج هو الاحتمال وليس اليقين.

-الحِجَاج يعتمد على مجموعة من الحجج تؤدي إلى نتيجة.

أنواع الحِجَاج:

كما تنوعت تعريفات الحِجَاج تنوعت أيضًا أنواعه، فقد ذكر الدكتور: عبد الله صولة، تقسيماته وهي:١-الحجج شبه المنطقية: وتستمد هذه الحجج قوتها الاقناعية من مشابهتها للطرائق الشكلية والرياضية في البرهنة.

<u>الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية، وهي أنواع:</u>

-التناقض وعدم الاتفاق. والمقصود بالتناقض هو أن تكون هناك قضيتان في نطاق مشكلتين إحداهما نفي للأخرى ونقض لها.

(١) نظرية المحاجة، اكتشاف جديد وخصب، إيف جانري، ت: محمد يحياتن، مجلة اللغة والأدب، دار الحكمة، ع١١، الجزائر، ١٩٧٧،ص٢٨٠

-التماثل والحد في الحجاج. التماثل التام مداره على التعريف من حيث هو تعبير عن التماثل بين المعرَّف والمعرِّف وليس المعرِّف تمام المعرَّف على الحقيقة؛ لهذا سمي الحجاج من هذا القبيل حجاجًا شبه منطقي، وإلى هذا النوع ينتمي حجاج الوليد بن المغيرة حول القرآن والذي سيتم تناوله في الدراسة التطبيقية

-الحجج القائمة على العلاقة التبادلية. تتمثل في معالجة وضعيتين إحداهما بسبيل من الأخرى معالجة واحدة وهو ما يعني أن تينك الوضعيتين متماثلتان ــ وإنْ بطريقة غير مباشرة. وتماثلها ضروري لتطبيق قاعدة العدل التي تقتضي معاملة واحدة لكائنات أو وضعيات داخلة في مقولة واحدة.

- حجة التعدية. وضروب العلاقات التي تقوم على خاصية التعدية، هي علاقات التساوي والتفوق والتضمن.

<u>الحجج شبه منطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية ومنها:</u>

-تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له.

-إدماج الجزء في الكل.

٢ــ الحجج المؤسسة على بنية الواقع:

الاتصال التتابعي:

-الحجة السببية.

-حجة التبذير.

-حجة الاتجاه.

-الاتصال التواجد.

-حجة الشخص وأعماله.

-حجة السلطة.

-الاتصال الرمزي.

٣-الحجج المؤسسة لبنية الواقع: وهذه الحجج تستخدم للحجج شبه المنطقية للربط بين أحكام مسلم بها، وأحكام يسعى الخطاب إلى تأسيسها وتثبيتها وجعلها مقبولة مسلمًا بها.

تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة.

الاستدلال بواسطة التمثيل .(١)

هذه الأنواع هي التي تقوم عليها البنية الحجاجية، تقول الدكتورة: سامية الدريدي بشأن هذا التصنيف:" يبدو مقنعًا؛ لأنه يبرز الفوارق بين الحجج ويظهر الاختلافات الدقيقة بينها، كما يحيط بكل الحجج تقريبًا على نحو يعسر معه العثور على حجة لا يمكن ردها إلى أحد الأصناف المعتمدة ."(٢)

كما قسم الدكتور طه عبد الرحمن الحجاج في كتابه (التكوثر العقلي) إلى:

أ ــ الحجاج التجريدي: وهو الإتيان بالدليل على الدعوى على طريقة أهل البرهان.

ب ــ الحجاج التوجيهي: وهو إقامة الدليل على الدعوى بالبناء على فعل التوجيه الذي يختص به المستدل.

ج ــ الحجاج التقويمي: هو إثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المستدل على أن يجرد نفسه ذاتًا ثانية ينزلها منزلة المعترض على دعواه. (٣)

أهمية الحجاج والبلاغة

يعد الحجاج من أهم النظريات التي تهتم بها التداولية، وهو يرتكز أساسًا على دراسة التقنيات والآليات الذين يتبناهما المتكلم، للتغيير من معتقدات المتلقي،

---

(١) ترجم عبد الله صولة هذه الحجج من كتاب برلمان، وتيتيكا مصنف في الحجاج: الخطابة الجديدة، تحت عنوان في نظرية الحجاج: دراسات وتطبيقات الناشر مسكيلياني للنشر والتوزيع الطبعة الأولى ٢٠١١م، ٤٢: ٤٨ بتصرف، وينظر الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته عبد الله صوله: ٢٩٩، ٣٤٢.

(٢) الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، د سامية الدريدي كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، تونس علم الكتب الحديث ص ١٩.

(٣) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي طه عبد الرحمن: ص ٢٢٦ ، ٢٢٩

وإقناعه بالموضوع المراد الإيصال إليه، كالإشارات والعبارات والحجج، إذ لا يمكن لأي مخاطب أن يستغني عن هذا الأسلوب الذي يهدف إلى استهواء المتلقي واستمالته، وهذا الأمر لا يكمن في المجال الأدبي فحسب، وإنما تجده في حياتنا اليومية التي تبنى كليًا على الأدلة والحجج أثناء عملية التواصل، فالخطاب الحجاجي هو الركيزة الأساسية في إيصال الأفكار وتحقيق المقاصد بين "المتكلم والمتلقي"، وتجده يتضمن كل الوسائل: الإثارة والإقناع والتحاور؛[١] لذلك اهتم البلاغيون كثيرًا بالحجاج لأهمية دوره في تحقيق الإقناع؛ وتبرز أهمية الحجاج في كونه أسلوبًا بلاغيًا في المقام الأول، يعمد إلى التفكير العقلي في معالجة القضايا، والبرهنة على صحتها، ولهذا النمط من القول الحجاجي خصائص وسمات تتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، تجعل اللغة وظيفة حجاجية، وأن هذه الوظيفة مؤشر لها في بنية الأقوال، وفي المعنى، وفي كل الظواهر الصوتية، والصرفية، والتركيبة، والدلالية[٢]

لذلك أقر ابن خلدون في مقدمته بضرورة استعمال الحِجَاج بوصفه آلية من آليات الإقناع القادرة على تحقيق المقاصد والأهداف، والتي كثر استعمالها في المناظرات والمحاورات.[٣] .

أما أبو الوليد الباجي فقد أورد في كتابه المنهاج في ترتيب الحجاج " أن الحِجَاج يعد علمًا من أرفع العلوم قدرًا وأعظمها شأنًا، لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجة ولا عُلِم الصحيح من السقيم ولا المعوج من المستقيم. [٤]

(١) آليات الحجاج اللغوية في المثل الشعبي مقاربة تداولية حبيب الله منصوري، محمد بن سعيد، المجلد ١٠، العدد الثاني، يوليو ٢٠٢٠م

(٢) ينظر اللغة الحجاج، أبو بكر العزاوي، ص ٨.

(٣) استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية الهادي بن ظافر الشهري: ، ص ٤٤٩.

(٤) كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج، لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي،(٤٠٣ ـــــ ٤٧٤هـ) تحقيق عبدالمجيد تركي، ط ٣، بيروت: لبنان دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠١ م، ٨.

فالحجاج هو عنصر داخل الخطاب وليس بخارج عنه، فأي خطاب يقصد إلى الإقناع أو التواصل يحتاج إلى الحِجَاج باعتباره الآلية التي تساعده على التواصل والإقناع؛ لذلك فالحجاج مرتبط بالخطاب، أينما يكون الخطاب يكون الحِجَاج، وذلك لما يستدعيه من التأثير والإقناع من خلال اللغة والتخاطب، فالمحاجة موجودة في كل مكان، في الحوار العادي والمرافعات والخطب والمناقشات...، وهذا ما جعل الباحثين يركزون جهودهم في بناء نظرية تصف أدواته وتقنياته وأغراضه وتحلل بنيته، تنطلق من الخطاب الحجاجي ذاته. (١)

علاقة الحِجَاج والبلاغة وآثارهما في الإقناع:

إن علاقة الحِجَاج بالبلاغة علاقة ترابط وتكامل. يقول الجاحظ: " جماعُ البلاغة البصر بالحجّة، والمعرفة بمواضع الفرصة"(٢)، فيربط البلاغة مباشرة بالحجّة القوية التي تُعلي صاحبَها على مناظِره، ومن ثمّة إلجامُه عن الكلام وحمله على الاستماع والإذعان فمتى كان ملقي الكلام أو الخطاب عارفًا بمواضع حجته وكيفية استخدامها كان كلامه مقنعًا أو بليغًا، وهو نفس المعنى الذي تجده عند الكثير من القدامى، فالعسكري يعرفها بأنها " كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن"، (٣) فهي عنده إيصال المعنى إلى قلب السامع بصورة بليغة يعرضها المتكلم في صورة حسنة ومقبولة، أي أنها تدور حول الفهم والإفهام، وهو نفس المعنى الذي تجده عند عبد القاهر الجرجاني والذي يرى أن البلاغة هي الكلام الهادف والمعبر عن مقاصد المتكلم ودواخله (٤)، وهو يتفق مع ابن الأثير أيضا في أن مدار البلاغة هو: " استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ

(١) نظرية الحجاج نعمان بوقرة، مجلة الموقف الأدبي، ملخص بموقع اتحاد الكتاب العرب، ع٧، دمشق، ٢٠٠٥.ص٤٠

(٢) البيان والتبيين للجاحظ، مرجع سابق، انظر: ج ٦٤/١

(٣) كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، مرجع سابق، ص ١٩.

(٤) دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، مرجع سابق، ص ٤٧.

المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستعملة لبلوغ غرض المخاطب " . [١]

إن البلاغة مجالها التعبير وأساليبه، وهو المجال نفسه الذي يتخذ منه الحجاج أدواته وتقنياته ليصبح أحد مباحث البلاغة من خلال استعماله الأساليب والأدوات البلاغية كوسائل إقناعية، وذلك من أجل إحداث الإقناع والتواصل لدى المتلقي وحثه على الإذعان، على أن أهم فكرة تتقاطع فيها البلاغة مع الحِجَاج هي فكرة المستمع فكلاهما يعتبر المستمع هو محور العملية التواصلية، وهدفهما أولًا وأخيرًا إقناع المستمع باستعمال نفس الأدوات والوسائل. [٢]، وأيضًا الحِجَاج لم ينفصل عن الخطاب في أي زمان ولا في أي مكان؛ لأنه مرتبط باللغة والتواصل فأينما تكن اللغة يكن الحِجَاج، هذا الارتباط سببه البلاغة وما توفره من وسائل وآليات، فقد أصبحت البلاغة أداة طيعة في يد الكتاب والشعراء يستخدمونها من أجل إقناع المتلقي، وبذلك أصبحت البلاغة وسيلة من وسائل التأثير والإقناع، ولهذا ارتبطت البلاغة بالحجاج منذ القديم واندمجت معه، فهي تدور دائمًا حول الفهم والإفهام، وهو مرتبط بالإقناع والتأثير، فبراعة البلاغة تكمن في مدى قدرة ملقي الكلام على التأثير في المتلقي وإقناعه باستخدام الصور البيانية والأساليب البلاغية.

وإذا كان هدف البلاغة هو الإفهام والتأثير وتحقيق الإقناع والاستمالة، فإنه الهدف نفسه الذي يسعى لتحقيقه الحِجَاج إلا أن البلاغة أشمل من الحِجَاج؛ لأن الحِجَاج نوع أو جنس من القول؛ شأنه شأن أي لون بلاغي كالبرهان والمذهب الكلامي أو غيره من الفنون القولية الأخرى، غير أنه يتميز بكونه موجه لأغراض بلاغية وإقناعية (موجه لإقناع الجمهور بفحوى الخطبة) وهذا ما جعله يلتبس بالبلاغة ويتداخل معها. إن البلاغة لا يكتمل تأثيرها إلا بتوفر عنصر الحجاج

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، مرجع سابق، ص ٤٨.
(٢) نظرية الحجاج، نعمان بوقرة ، مرجع سابق، ص ١٠٧

فيها، وهنا تكمن حاجة البلاغة إلى الحجاج، فهي في أول أمرها عتاد بنائي وتبلغي يوظفه الخطيب أو القائل لطرح أرائه وقناعاته من أجل كسب الإذعان من المتلقي والتأثير فيه، إلا أن استعمال الصور المجازية واللغوية لا تكفي لتحقيق الهدف، ولهذا يجب أن تعضد بأدوات يوفرها الحِجَاج ليكتمل ذلك البناء ويصل الخطاب إلى الأهداف المقصودة (الإقناع والإذعان). [1]،

وهكذا يظهر جليًا أن حاجة البلاغة للحجاج تكون بقدر حاجته لها، فالحجاج بالنسبة للبلاغة يمثل رافداً تستقي منه القدرة على كسب المصداقية، والبلاغة بالنسبة للحجاج هي المصدر الذي يأخذ منه الأدوات والأساليب في التعبير لكي يستطيع التأثير في المتلقي وإقناعه؛ فالبلاغة وثيقة الصلة بالحجاج، فوظيفة البلاغة هي وصف الطرق الخاصة في استعمال اللغة وتصنيف الأساليب بحسب تمكنها في التعبير عن الغرض تعبيرًا يتجاوز الإبلاغ إلى التأثير في المتكلم أو إقناعه بما يقول أو إشراكه في ما يحس به، وغايتها مد المستعمل بما تعتبره أفضل طريقة في بلوغ المقاصد.

إن غاية الحِجَاج ومنتهاه هو إقناع العقول بما يطرح عليها، وذلك عبر توظيف تقنيات محددة تجعل من تحقيق هذا المبتغى أمرًا ممكنًا. لذلك فإن البلاغة والحجاج علاقتهما مع الإقناع هي علاقة السبب والنتيجة، فالبلاغة والحجاج سبب يؤدي إلى النتيجة وهي الإقناع والإمتاع.

(١) المرجع السابق، ص ١١٠.

المبحث الثاني: حجاج الوليد بن المغيرة حول القرآن الكريم

كان الوليد بن المغيرة شيخًا كبيرًا ومن حُكماء العرب، يتحاكمون إليه في أُمورهم، وينشدونه الأشعار، فما اختاره من الشعر كان مقدَّمًا ومختارًا، وما اقترحه من رأي كان هو الرأي المأخوذ به؛ لذلك اجتمعَ رؤساءُ قريش وذهبوا إليه يلتمسون منه رأيًا فيما طرأ عليهم، ويطلبون منه المشورة في أمر عظيم يهدِّدُ مجتمعَ قريش وقيمَه، هذا الأمرُ هو الدَّعوةُ الجديدةُ الَّتي أتى بها رسول الله ﷺ ــ وما أحدثتْهُ من تغيير في نفوس المؤمنين، والمنكرين لها على حدٍّ سواء، وبأي أسلوب يمكن التخلص من هذا الدين الجديد، حيث يزداد عدد المعتنقين له يومًا بعد يوم.

ورد في الحديث الشريف:

أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الصَّنْعَانِيُّ بِمَكَّةَ، ثنا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَنْبَأَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ــ ﷺ ــ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: يَا عَمِّ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا. قَالَ: لَمَ؟ قَالَ: لِيُعْطُوكَهُ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتُعْرِضَ لِمَا قِبَلَهُ قَالَ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا. قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ «فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَهِ مِنِّي وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَوَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ» قَالَ: لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ. قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: " هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ فَنَزَلَتْ:(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) (سورة المدثر: ١١) [١]

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٢/٥٥٠ في كتاب التفسير، باب: تفسير سورة المدثر، الحديث رقم: ٣٨٧٢، وقال عنه: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ» ووافقه الذهبي، والبيهقي في دلائل النبوة ٢/٧٥ رقم ٥٠٥.

وورد في السيرة النبوية:

(أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانَ ذَا سِنٍّ فِيهِمْ، وَقَدْ حَضَرَ الْمَوْسِمَ فَقَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّهُ قَدْ حَضَرَ هَذَا الْمَوْسِمُ، وَإِنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ سَتَقْدَمُ عَلَيْكُمْ فِيهِ، وَقَدْ سَمِعُوا بِأَمْرِ صَاحِبِكُمْ هَذَا، فَأَجْمِعُوا فِيهِ رَأْيًا وَاحِدًا، وَلَا تَخْتَلِفُوا فَيُكَذِّبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَيَرُدَّ قَوْلُكُمْ بَعْضُهُ بَعْضًا، قَالُوا: فَأَنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ، فَقُلْ وَأَقِمْ لَنَا رَأْيًا نَقُولُ بِهِ، قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ فَقُولُوا أَسْمَعْ، قَالُوا: نَقُولُ كَاهِنٌ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِكَاهِنٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا الْكُهَّانَ فَمَا هُوَ بِزَمْزَمَةِ الْكَاهِنِ وَلَا سَجْعِهِ، قَالُوا : فَنَقُولُ: مَجْنُونٌ، قَالَ: مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ. لَقَدْ رَأَيْنَا الْجُنُونَ وَعَرَفْنَاهُ، فَمَا هُوَ بِخَنْقِهِ، وَلَا تَخَالُجِهِ، وَلَا وَسْوَسَتِهِ، قَالُوا: فَنَقُولُ: شَاعِرٌ، قَالَ: مَا هُوَ بِشَاعِرٍ، لَقَدْ عَرَفْنَا الشِّعْرَ كُلَّهُ رَجَزَهُ وَهَزَجَهُ وَقَرِيضَهُ وَمَقْبُوضَهُ وَمَبْسُوطَهُ، فَمَا هُوَ بِالشِّعْرِ، قَالُوا: فَنَقُولُ: سَاحِرٌ، قَالَ: مَا هُوَ بِسَاحِرٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا السُّحَّارَ وَسِحْرَهُمْ، فَمَا هُوَ بِنَفْثِهِمْ وَلَا عَقْدِهِمْ، قَالُوا: فَمَا نَقُولُ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ؟ قَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ أَصْلَهُ لَعَذِقٌ، وَإِنَّ فَرْعَهُ لَجُنَاةٌ – قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ لَغَدِقٌ – وَمَا أَنْتُمْ بِقَائِلِينَ مِنْ هَذَا شَيْئًا إِلَّا عُرِفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَإِنَّ أَقْرَبَ الْقَوْلِ فِيهِ لَأَنْ تَقُولُوا سَاحِرٌ، جَاءَ بِقَوْلٍ هُوَ سِحْرٌ يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَأَبِيهِ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَأَخِيهِ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوجته، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره. فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة قوله: (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا.....) [1]

في هذا الخبر بيان أثر دعوة رسول الله ــ ﷺ ــ على الكفار، حيث حملهم ذلك على الخروج عن مألوف العقلاء، ولا شك أن سلوك رسول الله ــ ﷺ ــ الحكيم وطهارة سمعته من أي شائبة من الرذائل بعد توجيه الله – سبحانه – إياه، قد

(١) مختصر سيرة ابن هشام لأبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري ت٢١٣ ه اختصرها وعلق عليها السادة العلماء أعضاء لجنة السيرة النبوية بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٤٣٠هـ ــ ٢٠٠٩م ج١/١٨٠.

حمل الكفار على اختلاق تُهَم لا أصل لها فعقدوا لذلك مجلسًا أعلى لتزوير الحقائق، وأبتْ عليهم العصبية في شدتها، أن يؤمنوا برسول الله ـ ﷺ ـ ، بل حاولوا الافتراء عليه واستخدموا في ذلك حججًا واهية وكان الوليد بن المغيرة يمتلك عقلية حجاجية مكنته من بناء حواره بناءً حجاجيًا قادرًا على الوصول إلى الأهداف والغايات التي سطرها منذ البداية وهي اقناع قومه بأن ما يقوله محمد ـ ﷺ ـ سحر، مستخدمًا أسلوب الحجاج لإقناعهم.

فبدأ الوليدُ خطابه بوصفه الحالَ المستجدَّةَ؛ (حضر الموسمُ، وفودُ العرب ستحجُّ البيتَ، سمعت العربُ بأمر رسول لله ـ ﷺ ـ)، وهذه الحال تقتضي من القرشيّين أن يكونوا على رأي جامعٍ في رسول لله ـ ﷺ ـ حتَّى لا يقعوا في التَّناقض أمام العرب، وهنا يطلب الوليدُ آراءَ القومِ في رسول الله ـ ﷺ ـ ، فالوليد هو الطرف الفاعل، نظرًا لمكانته، ولأن رأيه دومًا هو الحاسم، أما الطرف الثاني فهم رجال قريش وقد عدو فيها المتلقين والمخاطبين وذلك لأن ثمة تبادلًا للأدوار فرضته طبيعة الخطاب الحوارية، فلا تستقر الأطراف في تصنيف واحد بل يصير المتلقي مخاطبًا والمخاطب متلقيًا بحسب توجه دفة الحوار.

تلاحظ استخدام الوليد للأسلوب الإنشائي وينوعه ما بين فعل الأمر الذي يستهدف إعلام المخاطب أمرًا يستلزم منه الإذعان، في قوله(فَأَجْمِعُوا فِيهِ رَأْيًا وَاحِدًا)، والنهي في قوله (وَلَا تَخْتَلِفُوا) ويبين لهم العلة من هذا النهي فيقول: (فَيُكَذِّبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَيَرُدَّ قَوْلُكُمْ بَعْضُهُ بَعْضًا) فهذه الأساليب تلعب دورًا مهمًا في العملية الحجاجية من خلال ما توفره من إثارة، وما تستدعيه من عواطف ومشاعر تحمل المخاطب على التأثر، ومن ثمَّ اتخاذ موقف من الخطاب فتضافر هذه الأساليب مع السياق للوصول للنتيجة التي يقصدها الوليد، وهي تحفيزهم على قول رأيًا فيما يقوله رسول الله ـ ﷺ ـ ، ولكن كان ردهم أنهم تركوا له الرأي.

فقَالُوا: فَأَنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ، فَقُلْ وَأَقِمْ لَنَا رَأْيًا نَقُولُ بِهِ.

ولكن الوليد أراد أن يعرف ما عندهم أولًا ليبني حججه؛ لأن البحث في بنية النص الحجاجي يقتضي البحث في الحجج التي يبنى عليها النص والتي تم توظيفها من أجل تحقيق الخطاب الحجاجي لأهدافه، والتي يمكن حصرها في جعل المتلقي يقتنع ويذعن لما يقوله ويطلبه المتكلم أو المحتج، فالحجاج عملية حوارية إقناعية يطالب المحاور غيره بمشاركته اعتقاداته....، فإذا اقتنع الغير بهذا الرأي كان كالقائل به في الحكم، وإذا لم يقتنع به رده على قائله [1] .

فقَالَ: بَلْ أَنْتُمْ فَقُولُوا أَسْمَع.

وهنا بدأ القومُ حجاجهمِ الَّتي تفضي إلى مقصدهم برمي رسول الله ــ ﷺ ــ بالكذب ويؤكِّدون ادِّعاءاتهمِ بحجَّةٍ شبه منطقيَّةٍ هي حجَّة التَّماثل والحَدِّ؛[2] إذ حَدُّوا حال الرَّسول الكريم ــ ﷺ ــ وماثلوا بينها وبينَ الكاهن، والمجنون، والشَّاعر، والسَّاحر، كلُّ ذلك لينفوا عنه صفةَ النُّبوَّة، وليوهمُوا السَّائلين عن حاله أنَّهُ إذا اتَّصف بواحدةٍ من هذه الصِّفات فإنَّه من المحال أن يكون نبيًّا مرسلًا، لكنَّ حجَّتَهم هذه كانت ضعيفةً لم تبلغْ من نفس الوليد بن المغيرة شيئًا، ومن ثم من نفوس العرب الَّذين سيسمعونها، إذ ردَّها عليهم مستخدمًا الحجَّةَ نفسَها أي حجَّة

(١) ينظر في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، طه عبد الرحمن: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء د. ط١، ٢٠٠٠، ص ٢٧٣.

(٢) وهذا الصنف من الحجج شبه المنطقية، يعتمد على التماثل الذي يدور في مجمله على التعريف من حيث هو تعبير عن التماثل بين المعرَّف والمعرِّف، ولكن ليس هو بالتمام وإلاَّ لكان هو نفسه؛ ولهذا سمي الحجاج من هذا القبيل حجاجًا شبه منطقي، إن المحتج في هذا الحجاج يعمد إلى تعريف المفاهيم وضبط الحدود، أو الأشياء بشكل ربما قد يكون غير واضح أو دقيق، في بعض الأحيان يكون ذاتيًا باعتباره ناجم عن تجربته الخاصة، وهذا الحجاج تجده حتى في استخدامنا اليومي، فقولنا مثلًا:" الحياة هي الحياة والموت هو الموت"، هو حجاج مبني على التماثل، فهو بهذا يكون من قبيل تحصيل الحاصل، فالحياة هي الحياة والموت هو الموت، فالحدان متماثلان ً إلا أنهما ليسا حدًا واحدًا إذ أحدهما حقيقي والآخر مجازي. ينظر فريق البحث في البلاغة والحجاج: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، ص ٣٢٧.

التَّماثل والحدِّ، وبيَّن لهم عَوَارَ ما ذهبوا إليه محتجًّا بتعريف كلِّ صفةٍ وصفوا بها رسول الله ــ ﷺ ــ ، ليخلُص من التَّعريف إلى عدم اتِّصاف الرَّسول ــ ﷺ ــ بها.

الحجة الأولى قَالُوا: نَقُولُ كَاهِنٌ. رد الوليد عليهم هذه الحجة ونفاها بقوله: لَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِكَاهِنٍ، وأتى بالدليل: حيث ذكر ما اختصَّ به الكهَّانُ ممَّا عرفوه ورأوه من أحوالهم، فقال: لَقَدْ رَأَيْنَا الْكُهَّانَ فَمَا هُوَ بِزَمْزَمَةِ الْكَاهِنِ وَلَا سَجْعِهِ، وقاس ذلك على حال رسول الله ــ ﷺ ــ فلم يجد فيه زمزمةَ الكاهن وسجعَه، كعبارات مجملة صغيرة الحجم، كثيرة المقاطع مقرونة بأسجاع وقوافي، وعليها مسحة من غرابة الألفاظ ومجانسة الحروف وغموض المعاني.

الحجة الثانية قَالُوا: فَنَقُولُ: مَجْنُونٌ. رد الوليد عليهم، فنفى عن رسول الله ــ ﷺ ــ صفة الجنون.

فقَالَ: مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ. وأتى بالدليل فقال: لَقَدْ رَأَيْنَا الْجُنُونَ وَعَرَفْنَاهُ، فَمَا هُوَ بِخَنْقِهِ، وَلَا تَخَالُجِهِ، وَلَا وَسْوَسَتِهِ.

الحجة الثالثة: قَالُوا: فَنَقُولُ: شَاعِرٌ. رد الوليد عليهم فنفى عن رسول الله ــ ﷺ ــ صفةَ الشِّعر: فقَالَ الوليد: مَا هُوَ بِشَاعِرٍ، وأتى بالدليل فقال: لَقَدْ عَرَفْنَا الشِّعْرَ كُلَّهُ رَجَزَهُ وَهَزَجَهُ وَقَرِيضَهُ وَمَقْبُوضَهُ وَمَبْسُوطَهُ، فَمَا هُوَ بِالشِّعْرِ، وقد كان العرب جميعًا يعرفون خصائص الشعر، ولا تخفى عليهم أنماط الشعر العربي، وكان القرآن الكريم بعيدًا عن خصائص الشعر وأشكاله.

الحجة الرابعة: قَالُوا: فَنَقُولُ: سَاحِرٌ، رد الوليد عليهم فقَالَ: مَا هُوَ بِسَاحِرٍ، وأتى بالدليل فقال: لَقَدْ رَأَيْنَا السُّحَّارَ وَسِحْرَهُمْ، فَمَا هُوَ بِنَفْثِهِمْ وَلَا عَقْدِهِمْ فنفى عنه صفةَ السِّحرِ؛ لأنَّه لم يأتِ بنَفْثِ السُّحَّار وعُقَدِهم.

وتخبط المشركون في ظنونهم حول رسول الله ــ ﷺ ــ والقرآن الذي جاء به، فقالوا عنه ما قالوا تخبطًا وحيرة لا تحقيقًا ومعرفة؛ ولهذا كان الجواب عن هذه الشبه في هذا التأكيد الواضح الذي جاء به الوليد، حيث رفض كل اقتراحاتهم

مستخدمًا أسلوب النفي (ما هو بكاهن، ما هو بمجنون، ما هو بشاعر، ما هو بساحر)، وهو قولٌ يحملُ معنى التَّأكيد؛ جاءَهُ من زيادة الباء في خبر (ما) وقد تكرَّرت صيغة النَّفي هذه عند الحديث عن كلِّ صفةٍ من الصِّفات الأخرى، وبيَّن لهم سبب رفضه حيث ذكر أدلة الرفض؛ فالكاهنُ زمزمة وسجعٌ، والمجنون خَنْقٌ وتخالجٌ ووسوسة، والشعر رَجَزٌ وهَزَجٌ وقريضٌ ومقبوضٌ ومبسوطٌ، والسِّحر (السَّاحر) نَفْثٌ وعُقَدٌ، محمَّدٌ ــ ﷺ ــ لا يتَّصفُ بهذه الصِّفات؛ فمحمَّدٌ ــ ﷺ ــ ليس كاهنًا أو مجنونًا أو شاعرًا أو ساحرًا .

من خلال هذا الحوار تجد أن الوليد اعتمد على تعريف المفاهيم الخاصة بكل صنف ذكره زعماء قريش (كاهن، مجنون، شاعر، ساحر) وتحديد مدلولها وما تتميز به من أجل توضيحها للمتلقي ومن ثم إقناعهم بأن محمدًا ــ ﷺ ــ لا يتصف بهذه الصفات، وبالتالي يتحقق الفهم الذي هو طريق الإقناع لأن أهم عناصر الحجاج هو الفهم والإفهام، فلا يمكن أن يكون هناك إقناع ما لم يكن هناك فهم للخطاب والكلام، وهذا ما يقوم به الوليد عن طريق التعريف وذكر الدليل، فهو يقوم بتوضيح ماهية الشيء بتعريف حده، ومن ثم إقناع المتلقي بذلك الكلام.

فالفعل الذي يتضمنه هذا الحوار هو نفي وصف الرسول ــ ﷺ ــ بأي وصف من هذه الأوصاف، إلا أنهم وقعوا في الحيرة والعجز عن وصف ما وجدوه! وهو الأمر الذي دعاهم للتفكير في أسرار إعجاز قوله ــ ﷺ ــ ، فكان الرد هنا بمنزلة الحجة نفسها، وبرز على أنه فعل حجاجي مضمر على وَفْقِّ ما يقتضيه السياق الذي يؤدي بالمخاطب إلى التسليم مرة بعد الأخرى، ويؤدي إلى تغيير معتقداته الباطلة تدريجيًا، فتلاحظ أن الوليد بذلك الأسلوب ينفي وصف الرسول ــ ﷺ ــ بالكهانة والجنون والشعر والسحر الذي يستلزم إثبات صدق رسول الله ــ ﷺ ــ وصدق ما يقوله، وذلك عن طريق أسلوب الإثبات والنفي وهما المعنيان اللذان يرتكز عليهما الحوار حيث تكثر في هذا الحوار أفعال الأمر

والنهي والنفي استنادًا إلى طبيعة خطاب الوليد الحجاجي الذي يحاور مخاطبًا حاضرًا في كل مسألة يعرضها، فدلالة أفعال الكلام (الأمر، النهي، النفي، أسلوب التأكيد)، تخرج عن معانيها الأصلية لغرض التأثير في المخاطب؛ فهي الآليات الاستراتيجية في الإقناع التي تقوم على حمل المخاطب على استنتاج معانٍ تدفعه إلى الاقتناع دفعًا، وتحثُّه على الإذعان والتسليم، وهذا هو السبب وراء تنوع أساليب الخطاب وما فيه من ترابط وتلاحم، حيث توجد روابط تؤدي وظيفة جوهرية داخل الخطاب، وتعمل على ربط وتنظيم بنية النص وتنشد التماسك والانسجام داخله، وتجعل منه وحدة كلية تفضي مقدماته أو حججه إلى نتائجه، حيث ترتبط الحجج والنتائج بروابط لغوية، فتجعلها متعلقة ببعضها البعض، فيكون بذلك النص متماسكًا منسجمًا يؤدي دوره الحجاجي المنوط به، وهو إقناع المتلقي ومن هذه الروابط الواو ووردت في (وَإِنَّ، وَقَدْ، وَلَا، ويرد، وإن، ويقال، وما.....) إن (الواو) بوصفها أداة من الأدوات الرابطة، كان لها دور كبير في ربط الوحدات والعناصر الموجودة في حوار الوليد، فقد استخدمها كثيرًا، وذلك باعتبارها تفيد الجمع المطلق، فهي تربط وتجمع بين الكلام بعضه ببعض، وهذا ما سهل على الوليد ربط وجمع الآراء في هذا الحوار.

ويعد التعليل من الأدوات اللغوية التي استعملها الوليد في تركيب خطابه الحجاجي وبناء حججه فيه، والذي يأتي لتبرير وتعليل رفضه للمقترحات المطروحة من قبل زعماء قريش، حيث علل لهم الرد بقوله:(لَقَدْ رَأَيْنَا الْكُهَّانَ فَمَا هُوَ بِزَمْزَمَةِ الْكَاهِنِ وَلَا سَجْعِهِ، لَقَدْ رَأَيْنَا الْجُنُونَ وَعَرَفْنَاهُ، فَمَا هُوَ بِخَنْقِهِ، وَلَا تَخَالُجِهِ، وَلَا وَسْوَسَتِهِ، لَقَدْ عَرَفْنَا الشِّعْرَ كُلَّهُ رَجَزَهُ وَهَزَجَهُ وَقَرِيضَهُ وَمَقْبُوضَهُ وَمَبْسُوطَهُ، فَمَا هُوَ بِالشِّعْرِ، لَقَدْ رَأَيْنَا السُّحَّارَ وَسِحْرَهُمْ، فَمَا هُوَ بِنَفْثِهِمْ وَلَا عَقْدِهِمْ) فاستخدامه يأتي تبعا لحاجة المتكلم إلى التعليل والتبرير؛ وبالتالي يساهم التعليل في جعل الخطاب أكثر إقناعًا لأن الخطاب يكون مدعمًا بالحجج المؤيدة،

والمعللة للنتائج المحصل عليها، وبهذا يكون دور هذه العبارات التعليلية دورًا مهمًا في العملية الإقناعية [١].

وهكذا تحققت الغلبة للوليد بعد أن فند الآراء التي قالها زعماء قريش في رسول الله ــ ﷺ ــ فالحجج التي تعتمد على التماثل والحد لها دور كبير في إقناع المتلقي بالحجج الملقاة عليه فهي تكسب الخطاب الفهم، وبذلك يكون الإقناع.

واحتار القوم فطلبوا من الوليد أن يقول الرأي قَالُوا: فَمَا تقُولُ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ؟ قَالَ: وَاللَّهِ إنَّ لِقَوْلِهِ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ أَصْلَهُ لَعَذِقٌ، وَإِنَّ فَرْعَهُ لَجُنَاةٌ- قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ لَغَدِقٌ - وَمَا أَنْتُمْ بِقَائِلِينَ مِنْ هَذَا شَيْئًا إلَّا عُرِفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَإِنَّ أَقْرَبَ الْقَوْلِ فِيهِ لَأَنْ تَقُولُوا سَاحِرٌ.

تجد أن الوليد قد وصف القرآن الكريم أوصافًا بأرقى الكلمات، فقد جمع بين الفصاحة والبيان، فكان قوله بليغًا مقنعًا في الآن ذاته، وقد كان هذا القول بغير تصنع وتكلف، بديعًا مملوءاً بصور البلاغة، فقد أعجب بما في القرآن الكريم من الطلاوة والعذوبة والماء والائتلاف والسهولة واليسر، وكل هذا وجده فيما سمعه، لكنه اتخذ طريقًا مغايرًا لما كان متوقعًا وهو إيمانه ووجد ضالته في الجدل والحوار والحجاج.

أجاب الوليد على زعماء قريش بأسلوب تأكيد تمثل في القسم في قوله:(ووالله) ثم زاد في تأكيد كلامه فقال (إنَّ لقوله) وجاء هذا التأكد نابعًا من داخله فلما تأكد لديه أن القول الذي سمعه يمتلك حلاوة ليس لها مثيل صاغ عبارته مؤكدة كما تأكدت في نفسه، فـ" قد تدخل (إنَّ) على الجملة للدلالة على أن المتكلم كان يريد أمرًا فحدث أمرٌ آخر ما كان يتوقعه فيأتي بهذا التأكيد ليستقر هذا النبأ الجديد الذي لم يكن يتصوره "[٢]؛ فالوليد بن المغيرة كان يأمل أن يسمع كلامًا عاديًا يستطيع أن ينتقده ويبطله، وبالتالي يقضي على هذا الدين الجديد الذي

(١) ينظر استراتيجيات الخطاب: عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ص ٤٧٨. بتصرف.

(٢) من أسرار التعبير في القرآن، حروف الجر، للدكتور عبد الفتاح لاشين، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ /١٩٨٣م، مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية، ١٥٣ .

جاء به محمد ــ ﷺ ــ وكان متأكدًا من هذا الأمر وهذا ما شجعه على الذهاب لسماع النبي ــ ﷺ ــ فلما سمع القرآن الكريم وفوجئ بما سمعه أراد أن يقرر هذا الأمر الجديد في قلبه فجاء تعبيره بـ(إنَّ) إقرارًا منه لهذا الأمر الجديد الذي لم يكن يتصوره.

وقد يكون التأكيد لأنه وجَّه حديثه لمن هو منكر للقرآن الكريم وهو عمه أبو جهل، فراعى حال المتلقي وما عليه من إنكار فصاغ عباراته مؤكدة، فهذا يدل بلا شك على امتلاك القرآن الكريم الذي سمعه الوليد لهذه الحلاوة.

تجد أن الاستعارة الحجاجية في قوله: (وَاَللَّهِ إنَّ لِقَوْلِهِ لَحَلَاوَةً،) قد جمعت بين الأهداف الثلاثة لكل تعبير وهي (الإفهام- الإبلاغ- الإمتاع)؛ لذلك اختار التعبير بكلمة حلاوة لأنه أعجب إعجابًا شديدًا بما سمعه فعبر بلفظ يدل على ذلك لأن (حَلِيَ بقلبي وعيني يَحْلَى، وحَلَا يحْلُو حلاوة وحُلْوانًا إذا أعجبك، والحُلْوُ الحَلالُ: الرجل الذي لا ريبة فيه.) [1]، فما سمعه الوليد عجبه وتأكد لديه عدم وجود ريبة فيه؛ لذلك اختار هذا اللفظ .

والمقصود بالحلاوة ذلك الطعم الجميل الذي يغذي العقول والنفوس ويكون أثره مستساغًا لدى العقول والنفوس كما يكون أثر الحلوى على الذائقة البشرية. فهو شهي جذّاب للنفوس، جلاّب للميول، خلاّب للعقول، ترتاح إليه الأرواح. وهذه الحلاوة لم يجدها في غير القرآن الكريم.

والحلاوة إنما تستخدم للتعبير عن شيء تذوقه الإنسان وخالط طَعْمُه لحْمَه ودمَه وتمكن منه وأحس بحسنه عن طريق التذوق؛ فنطق بما أحسه وهو الحلاوة فكأن الوليد سمع القرآن الكريم وتذوقه ونطق بما وجده فقال كلماته المشهورة: (إنَّ لِقَوْلِهِ لَحَلَاوَةً)، وهو يقصد بذلك الإنصات له وأنه يلامس القلب ويدخل فيه. وهذا من إعجاز كتاب الله حيث أنه يطرق أبواب القلب، ويطرق الفطرة التي فطر الناس عليها. فليس كالشعر وغيره من الكلام مهما بلغ ذلك الشعر أو الكلام من

(١) لسان العرب مادة :(ح.ل.١)

فصاحة فلا يبارى به كتاب الله وكلامه، وهذه هي حلاوته، فالسامع يشعر بشيء يحركه من الداخل ويطرق_قلبه، أما عن جمال لفظه فقال: (وإن عليه لطلاوة) فالطلاوة تعني رونقًا وحسنًا وبهجة وقبولًا[1]، وهذا راجع إلى استحسان اللفظ. فألفاظه تمتلك الحسن والرونق، والطلاوة هي ما يطلى به الشيء حتى يزين ويجمل ويلفت انتباه الناظر والسامع. كمن يجمل كلامه وحديثه ويجتنب الكلام غير_المفهوم، أو الذي يكون له أكثر من معنى. وهذه الطلاوة في كتاب الله وكأنه مطلي بما يجمله ويحسنه؛ لذلك عبر بكلمة (عليه) التي تفيد ظهور هذا الحسن على اللفظ. أي أنه محلى بألفاظ جميلة وأنغام مقبولة فالمقصود بالطلاوة الجمال الأخاذ الذي يعتبر من المحسنات القرآنية، والقرآن الكريم مليء بالمحسنات اللفظية والمعنوية.

(وإنه لمثمرٌ أعلاه)، شبه القرآن بشجرة عظيمة، لها فروع وأغصان كثيرة كلها مليئة بالفاكهة وجذورها مستحكمة واسعة الانتشار في أعماق الأرض، فالثمر في لغة العرب وفي الواقع يكون دائمًا في الأعلى وليس في الادنى أو الأسفل. ويقصد في قوله: (لمثمر أعلاه) أي أنه يثمر وثمرته هداية وإرشاد البشر وتوعيتهم وتوجيههم.

(مُغدقٌ أسْفَلُه)

والمغدق: عبارة عن الشيء ذي الأصول المستمرة المتواصلة. حيث يستمد من ينابيع وجذور ومصادر عميقة. ويدل على ذلك قوله تعالى: (وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا) (سورة الجن:١٦) الماء الغدق هو الماء الذي يروي العطشى ويكون مستمرًا ولا ينقطع. فعطاء القرآن الكريم دائم لا ينقطع.

وقوله:(وإن أصله لعذق)، استعارة من النخلة التي ثبت أصلها وقوي وطاب فرعها إذا جني، والنخلة هي العذق بفتح العين، وهي استعارة تامة حيث يشبه

(١) لسان العرب مادة (ط.ل.ى)

آخر الكلام أوله، ورواية ابن هشام: إن أصله لغَدَق، وهو الماء الكثير وما جاء في رواية البيهقي من قوله لمغدق لعلها لغدق كما جاء في الرواية التي حكاها ابن هشام، والعذق كل غصن له شعب، وفي حديث مسلم : «كَمْ مِنْ عِذْقٍ مُعَلَّقٍ – أَوْ مُدَلًّى – فِي الْجَنَّةِ لِابْنِ الدَّحْدَاحِ» (١)، ويقصد بذلك أن قول الله تعالى لا يوجد فيه ما يعيبه لا من أعلاه ولا من أسفل منه. كما قال الله تعالى. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وأنه يعلو ولا يعلى عليه. إن القرآن يعلو ويتميز على كل الأساليب التي سمعها. فهو يعلو على كل كتاب، وعلى كل قصص، وعلى كل شعر قيل أو سيقال حتى قيام الساعة.

وقوله وأنه يحطم ما تحته: والتحطيم التكسير ومنه الحطيم بمعنى جدار الكعبة الذي فيه المزراب وسمي حطيمًا لأن البيت رفع وترك محطومًا (٢)

فالوليد يعني بذلك الاعتراف بأن كل ما غير القرآن تحته ولا يوجد ما يعلوه أو يفوقه في كل جانب.

وبالتأمل في قول الوليد ومعرفة محتواه تجد أنه يحتوي على كل ما تناوله العلماء بعد ذلك من مظاهر إعجاز القرآن الكريم، فهذا العربي البليغ صاحب العقل الحصيف أدرك إعجاز القرآن المعنوي، فعبر عنه بقوله إن له لحلاوة، واللفظي من خلال التعبير بقوله وإن عليه لطلاوة التي تعني الطلاء والزينة الخارجية والمحسنات اللفظية والمعنوية والقرآن ملئ بها، وأما قوله: أعلاه لمثمر يفيد أن القرآن الكريم يجمع معالي الأمور ويعطي اللفظ الموجز الذي يحوى المعاني الكثيرة؛ حيث جمع كل العلوم والآداب بين دفتيه، فالقرآن تحدث في العلوم

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، أخرجه في كتاب: الجنائز، بَابُ: رُكُوبِ الْمُصَلِّي عَلَى الْجَنَازَةِ إِذَا انْصَرَفَ الحديث رقم:٩٦٥، وقوله: (عذق) العذق هنا بكسر العين المهملة هو الغصن من النخلة، وأما العذق بفتحها فهو النخلة بكمالها وليس مراداً هنا.

(٢) لسان العرب، مادة:(ح.ط.م)

الطبية والفلكية والمواريث والعلاقات الاجتماعية والأسرية والتاريخ والقصص والأدب؛ لذك شبه القرآن بالشجرة الكبيرة ذات الثمار الكثيرة والتي هي في إثمار باستمرار وذلك بسبب الماء الكثير المغدق علها باستمرار، تلاحظ أنه عبر بالجملة الاسمية التي تدل على ثبوت إثماره وثبوت معانيه وثبوت إغداقه وكثرة مائه، واختار التمثيل بالشجرة إشارة إلى أن هذا القرآن هو الغذاء للروح بسماعه والشعور بالراحة والطمأنينة وغذاء للعقول بحصول المعرفة وتجدد الفكر وإذا حصل بالقرآن ذلك فإنه بالتالي لا مثيل له؛ لذلك قال بعدها إنه يعلو ولا يعلى عليه، وكأن ما يعطيه من معاني تغني عن كل شيء وتعلو على كل شيء، فعلوه جعله يحطم كل ما هو دونه؛ لذلك قال بعدها وأنه يحطم ما تحته. وإذا كان الوليد يهدف إلى الإقناع فلا بد له من الإيجاز؛ لذلك تجده يلجأ إلى الجمل البسيطة والقصيرة والموجزة والموحية التي توصل المعنى بأقصر صورة، وتؤثر في المتلقي وتشد انتباهه وتحمله على الاقتناع

وعبارة الوليد بن المغيرة في سياقها بمبناها ومعناها تحمل حقيقتين بارزتين: الأولى أن القرآن الكريم معجز في بلاغته وفصاحته، والثانية: أن العرب كانوا على وعي تام بهذه البلاغة وتلك الفصاحة التي امتاز بها القرآن الكريم عن غيره من كلام البشر والعرب(١)، وهكذا يصبح قول الوليد المحفوظ في الناس بالتواتر حجة على العربي والعجمي والأحمر والأسود.

لقد تنوعت الوسائل البلاغية الموجودة في كلمات الوليد التي استخدمها في صياغة محاوراته، فمن تشبيه إلى استعارة إلى كناية إلى استخدام صور البديع بأنواعه...، فهذه الصور البلاغية توفر الجمال وتقرنه بالإقناع بحيث يستحيل الفصل بينهما، فالمعنى يكون مقنعًا ولكنه يحتاج إلى جمال يُوشِّيه ويحفظ له رونقه ويدعم فعله والمعنى يكون جميلًا فتزداد قدرته على الفعل في المتلقي (٢)،

(١) من مقال بعنوان من بلاغة القرآن مجلة الرياض فبراير ٢٠١٨م

(٢) الحجاج في الشعر العربي القديم، من الجاهلية إلى القرن الأول الهجري، مرجع سابق، ص ١٢٢.

فالجمال البلاغي يؤثر على التذوق لدى المتلقي، ويسحره بما في العبارة من رونق فيزيد من قوة العبارة حجاجًا وإقناعًا.

وبالنظر إلى حوار الوليد تجد أنه يقصد إلى الإقناع وأيضًا تجد لديه معرفة دقيقة بمواقع الحجج ومواضعها وتجده يدير الحوار في منتهى اللباقة والقوة، فيبدأ بعرض الآراء المطروحة والمقترحات، بل بتعبير أدق المفتريات والادعاءات التي ادعاها العرب على القرآن الكريم وعلى سيد المرسلين، فبدأ يفند كل حجة على أساس قوي، وهو الذي لم يعلم أسس الحِجَاج المعروفة الآن، تجده قد طبق هذه الأسس بكاملها، فأخذ يعرض الفكرة ثم الرد عليها ودحضها وتفنيدها، وذكر الأدلة على صحة ما يقول وربط المقدمات بالنتائج، وهكذا حتى وصل في النهاية بأن هذا القول ليس قول البشر.

ولكنه خاب في الوصول إلى الحق، بعد ما حال دون ذلك عصبيته وسوء سريرته وكبريائه هذا الكبرياء الذي منع إبليس من السجود وفرعون وسائر المتجبرين من الإيمان والإقرار بالحق بعد أن أدركوه بعقولهم وجنانهم وإن أكثرهم للحق لكارهون، في الوقت الذي لم يبق له ـــ في استقرائه للاحتمالات وبعد إبطاله لكل الافتراضات التي افترضت في حقيقة محمد ـ ﷺ ـ إلا افتراضًا واحدًا يقوله ويصدقه العقل ويحكم به المنطق، وهو أن يقول أشهد أن لا اله إلا الله و أن محمدًا رسول الله، والقرآن كلام الله، فليس قرآنه بقول بشر، إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته، وإنه من حكيم خبير فآمنوا به يا قريش تفلحوا، فلم يجد ما يكذبه إلا عصبيته التي تعيده إلى أحد الافتراضات السابقة التي فندها بنفسه ورفضها بجنانه، ثم يعود إليها ليعتبرها الحل والسبيل لتفريق العرب عن محمد ﷺ ـ ما هذا إلا لسوء العاقبة وبئس المصير، الذي جعله ينقلب على عقله ومنطقه فيقول قولوا ساحر! فتوقف عند الخطوة الأخيرة يدفعه إلى ذلك غروره

وخوفه أن ينتقصه عظماء مكة وتعيبه نسائها، فهو إذن له رأي مسبق يبحث له عن مبرر، وحاول أن يقنع قومه وأتي بالحجج التي تساعده على ذلك. (١)

لماذا أوقعَ الوليدُ نفسَهُ في التَّناقض ومن قبلِهِ قومُهُ عندما وصفَ رسول الله ــ ﷺ ــ بأنه ساحرٌ مع علمه أنَّه ليس كذلك؟

ترى أنَّ الإجابةَ عن هذا السُّؤال تنقسمُ قسمين؛ أمَّا القسمُ الأوَّلُ فيمثِّلُ مقصدًا حجاجيًّا، ويعني السَّبب المباشر لوصف الرسول بالسِّحر، ومن وراء ذلك رفض الدِّين الجديد، وهذا المقصدُ ذو بعدٍ نفسيٍّ يتمثَّلُ في عدم رغبة أهل مكَّةَ في تغيير دين آبائهم؛ فقد وُلِدُوا وعاشُوا على تعظيم أصنامٍ توارثُوا عبادَتها عن آبائهم، وللآباء مكانةٌ عند الجاهليّين؛ لذلك اعتبروا المساس بالمعتقدات الَّتي توارثوها عن آبائهم مساسًا بقدسيَّة الآباء عندهم، وهذا ما يؤكِّدُهُ القرآن الكريم في أكثر من موضع منه؛ من ذلك قولُهُ تعالى:(بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) (٢٤). (سورة الزُّخرف)

وأمَّا القسمُ الثَّاني فيمثِّلُ بعدًا حجاجيًّا، ويعني السَّبب الخفيَّ للرَّفض، وهذا البعدُ يخفي وراءه عصبيَّةً قبليَّةً وحسدًا في أن يكونَ خاتم الأنبياء ــ ﷺ ــ من بني هاشمٍ من قريش، ولا شك في أنهم قد سمعوا وهم أوسطُ العرب بقرب ظهوره، فلمَّا جاءهم بما جاءهم به أَنِفُوا أن يتَّبعوه فيكونوا بظنِّهم متابعين لبني هاشم، فعادَوه وآذَوه ورفضوا دعوتَهُ بل عادَوا بني هاشمٍ كلَّهم؛ ممَّن آمن

(١) المعجزة الخالدة عظمة معجزات القرآن، شهادة العالم بإعجاز القرآن دراسة أسلوبه البياني، إعجازه العلمي والتشريعي والخلقي، آثاره في اللغة والأدب نقض مزاعم المستشرقين. تأليف الدكتور: حسن ضياء الدين عتر، الطبعة الثالثة ١٤١٥ه ١٩٩٤م دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ص ١٣٩-١٤٠. بتصرف.

بالإسلام، وممَّن هم على دينهم لم يبدِّلوه، وذلك عندما حاصروهم في شِعْبِ أبي طالب، فإنّ أشراف قريش وأعيانهم لم يؤمنوا بسبب تكبّرهم ونخوتهم مع أنّهم كانوا أُناسًا أذكياء ذوي فطنة يُعدّون من دُهاة العرب. وكانوا يرون من رسول الله ــ ﷺ ــ الآيات البيّنات والمعجزات الواضحة غير القابلة للتأويل، إلا أن الاستكبار والتعالي مع ذلك كله كان يُغلق أمامهم الطريق إلى الحق، لأن نفوسهم لم تكن تسمح لهم أن يخضعوا لمحمد ــ ﷺ ــ الذي كان بلا ثروة ولا سلطان ولا جاه ولا اعتبار دنيوي، ذكر عنهم القرآن الكريم: (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هذا الْقُرْآنُ على رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) وكانوا يعنون بالقريتين: مكة والطائف.. وكان الجواب القرآني: (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) (سورة الزخرف.٣١ -٣٢)

إنّ الوليد بن المغيرة وأبا جهل وأبا لهب وأبا سفيان وأمثالهم لم يكونوا من العامّة، بل كانوا أُناسًا مطّلعين مجرّبين خبروا الدنيا، وكانت لهم أسفارهم إلى إمبراطوريّتي فارس والروم، وكانوا من الناحية الاجتماعيّة والسياسيّة من رؤساء العرب وساستهم وفي طليعتهم ومن أصحاب الرأي فيهم، إلاّ أنّ التسليم لرسول الله ــ ﷺ ــ ومتابعته وتسليمه الأُمور السياسيّة والاجتماعيّة والحكومة والولاية على الناس؛ وهو من نتائج وفروع الإيمان بالله والتوحيد؛ لم يكن ليتّفق وينسجم مع نفوسهم المتكبرة، وكان ذلك هو السبب في تمردهم وعدم انقيادهم، وشنّهم الحروب وتحريضهم الأحزاب والجماعات ضد رسول الله ــ ﷺ ــ.

ولماذا اختار الوليدُ السِّحر دون غيره؟

إنَّ اختيارَ الوليدِ وصفَ الرَّسول ــ ﷺ ــ بالسحر يرجِعُ إلى أنَّ حالَ الكاهن والمجنون والشَّاعر حالٌ ظاهرةٌ جليَّةٌ لا تخفى على أحدٍ إذا عاينها بدقَّةٍ، وبذلك يعرف من رأى رسولَ الله ــ ﷺ ــ أنَّهُ ليس كما وُصِفَ به من الصِّفات(الجنون،

الكهانة، الشعر)، بخلاف السَّاحر الَّذي قد يخفى على النَّاس أنَّه ساحرٌ إلَّا إذا رأوا منه أفعالًا وأمورًا هي نتاجُ سحره، وهو أيضًا أمرٌ لا ينطبقُ على الرَّسول ــ ﷺ ــ ، ولكنَّه يبقى أقربَ ما يمكن أن يصفوه به من أمورٍ رأوها تصلحُ لنفي النُّبـوَّة عنه، ثمَّ إنَّ هذا القرب راجعٌ إلى ما بيَّنَهُ الوليدُ نفسه في كلامه (إِنَّ لِقَوْلِهِ لحَلَاوَة، وَإِنَّ عَلَيْهِ لطُلَاوَة)، فالعلاقةُ بين كلام الرَّسول ــ ﷺ ــ والقرآن الكريم وما أحدثه من تأثير في نفوس الَّذين استمعوا إليه والسِّحر الَّذي يعرفونه قائمةٌ؛ إذ كلاهما يغيّرُ الأشياء من حالٍ إلى حالٍ.

ويصف الإمام الخطابي ذلك الحوار بقوله: " ثم صار المعاندون له ممن كفر به وأنكره يقولون مرة إنه شعر لما رأوه كلامًا منظومًا، ومرة سحر إذ رأوه معجوزًا عنه، غير مقدور عليه، وقد كانوا يجدون له وقعًا في القلوب وقرعًا في النفوس يريبهم ويحيرهم، فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعًا من الاعتراف. ولذلك قال قائلهم: إن له حلاوة وإن عليه طلاوة. وكانوا مرة لجهلهم وحيرتهم يقولون (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) (سورة الفرقان:٥) مع علمهم أن صاحبه أمي وليس بحضرته من يملى أو يكتب. في نحو ذلك من الأمور التي جماعها الجهل والعجز، وقد حكى الله ــ جل وعز ــ عن بعض مردتهم وشياطينهم ويقال هو الوليد بن المغيرة المخزومي ــ أنه لما طال فكره في أمر القرآن وكثر ضجره منه، وضرب له الأخماس من رأيه في الأسداس. لم يقدر على أكثر من قوله (إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) عنادًا للحق وجهلًا به وذهابًا عن الحجة وانقطاعًا دونها وقد وصف ذلك من حاله وشدة حيرته فقال سبحانه (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ) (٢٤) (سورة المدثر) وكيفما كانت الحال ودارت القصة، فقد حصل باعترافهم قولًا،

وانقطاعهم عن معارضته فعلًا أنه معجز، وفي ذلك قيام الحجة وثبوت المعجـزة، والحمد لله[١].

لقد أدرك الوليد أنّ القرآن لا يشبه كلام الإنس، وهو فوق كلامهم، ولما كان مقتضى العجز، اعتناق الدين الّذي كان النبي يدعو إليه، خدع عقله وعقول قومه بتفسيره بالسحر، بحجة أنّ السحر يفرّق، والقرآن أيضًا فرّق بينهم. وكان لا بـد أن ينسبه إلى أمر يراه العامة عسيرًا عليهم ميسورًا لغيرهم ليصرفهم عن الايمان والاذعان، فقال: هذا سحر يؤثر كما فعل سلفه فرعون من وما كان ليقوله لو علم إمكان معارضته[٢].

فتفسير القرآن بالسحر، وتوصيف الـداعي بالسـاحر أدلّ دليـل علـى أنّ فُصَحاء العرب وجدوا العجز في أنفسهم، ورأوا أنّ الهزيمة فـي حلبـة السـباق معقودة بنواصيهم، فما وجدوا مخلصًا لتعمية من يفد على مكة في أيام الحج من عرب الجزيرة إلا بتفسيره بشيء ينطلي على طباع السُّفهاء وأذهان السذج مـن الناس، وهو أنّه سحر والجائى به ساحر، بحجة الاشتراك في الأثر، حيث إنهم بعد إعمال الفكر وجدوا نوع تشابه بين أثر دعوة رسول الله ــ ﷺ ــ ومـا يحدثـه السحر من التفريق بين الرجل وابنه وزوجه وعشيرته، فأجمعوا على اتهامـه ــ ﷺ ــ بالسحر وهم يعلمون أن هناك فرقًا بين أثر دعـوة الحـق وأثـر السـحر الباطل، إلا أنهم لفرط عداوتهم وإفلاس حجتهم تعلقوا من ذلك بدعاوى أوهن من خيوط العنكبوت.

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطابي وعبد القاهر في الدراسـات القرآنيـة والنقـد الادبي، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله، دكتور: محمد زغلـول سـلام، الطبعـة الثالثـة، دار المعارف بمصر ص٢٨ ، ٢٩ .

(٢) المعجزة الخالدة، مرجع سابق، ١٤٠. بتصرف.

بلاغة الامتاع في حجاج الوليد بن المغيرة حول القرآن الكريم

إن الوليد بن المغيرة قد أمتع كل من سمع قوله عن القرآن الكريم وصارت كلماته بمثابة النشيد الخاص بالقرآن الكريم فلا يكاد يتحدث أحد عن القرآن الكريم إلا وقال العبارة المشهورة (إِنَّ لِقَوْلِهِ لحَلَاوَة ....) لذلك قد تحقق فعلًا الإمتاع بما قاله ولاشك في أنه قال هذه المقولة بعد أن تأثر بالقرآن، ولذلك يعد الوليد أوّل من تنبّه إلى عظمة القُرآن وآي الذكر الحكيم، وأول من شهد بإعجاز القرآن الكريم وهو من بُلغاء عصر الوحي وزمن نزوله، ومن شيوخ قُريش وعوارف العرب في الأدب الجاهلي، والخبراء بصناعة الإنشاء، ومن هذه المنطلقات جاءت كلمته المأثورة عن القرآن الكريم، سبيكة مرصعة، إنّها شهادة من الخبير العدو، الّذي التجأ إلى الاعتراف بدافع من ضميره، خاصة وأن شهادته كان لها أثر كبير في حق القرآن الكريم، في ظل علمه بكلام العرب وفصاحتهم وحفظه لشعرهم وإن كان قال قولًا آخر في القرآن الكريم دفعه إليه تعلقه بدين آبائه.

فعندما سمعه من الرسول ــ ﷺ ــ تأثر به فقد كانت جاذبيّة القرآن الكريم وتأثير حديثه بحيث ترتعد عند استماع آياته فرائص أعدى أعدائه، وربما انهارت قواه، فهناك ألفاظ تحمل شحنات انفعالية تحدث تأثيرات في المتلقي ترهيبًا أو ترغيبًا، وهذا ما حدث للوليد بن المغيرة فعندما سمع القرآن الكريم من رسول الله ــ ﷺ ــ بدأ الوليد يرتعش ويرتجف وتحول جسده كله إلى شجرة تهتز أمام الريح العاتية، لا يستطيع أن يسيطر على نفسه. وكان هذا باديًا عليه، وكل من جلس، يراقبه من بعيد ويتوقع أنه سيبدي رأيًا فصلًا في القرآن الكريم وفي الآيات التي سمعها من محمد ــ ﷺ ــ وكان هذا التأثر ظاهرًا للعيان من خلال ما ظهر عليه من الصمت الذي تملكه والقشعريرة التي تمكنت منه ووقوف شعره حتى شعر لحيته فلما تمكن هذا التأثير منه طلب من النبي ــ ﷺ ــ أن يصمت وذهب إلى بيته لم يحدث أحدًا، وأخذ التأثير الباطني يتمكن منه فأخذ يفكر فيما سمعه،

فقال كلمات ناطقة بإعجاز القرآن شاهدة على تأثيره فقال: (ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة.....)

تبين من هذا الخبر عظمة النبي ــ ﷺ ــ وقوته في التأثير بالقرآن على سامعيه، فالوليد بن المغيرة كبير قريش ومن أكبر سادتهم، ومع ما يحصل عادة للكبراء من التكبر والتعاظم فإنه قد تأثر بالقرآن الكريم ورق له واعترف بعظمته ووصفه بذلك الوصف البليغ المؤثر، فقد كانت العرب تحتكم إليه في أمورهم العظيمة، وكان له الرأي والمشورة، وله المكانة العظيمة إذا قال يسمع لقوله، وإذا حكم ينفذ حكمه، فقد وهبه الله عقلًا حصيفًا وجعله وحيدًا متميزًا منفردًا في كل شيء؛ لذلك تجد أنه جاء بعبارات فريدة متميزة لم يقلها أحد قبله في وصف القرآن الكريم، إن تلك الكلمات تعد شهادة حق من أحكم العرب الذي خبر الأشعار والأراجيز وعلم أمور السحر والكهانة، إنه يصدر حكمه عن بينة وعن يقين، فهذه الكلمات للوليد بن المغيرة يصف فيها القرآن الكريم وبلاغته، وهي كناية عن عذوبة ألفاظ القرآن الكريم وجزالتها وحلاوتها... وقوة تركيبه وسمو معانيه وأخذه بمجامع القلوب وعلوه على كل كلام، وأنه ليس من كلام البشر فهو أعلى وأبلغ وأجمع من كل كلام، ولهذا شهد له الأعداء بهذه الشهادة التي، تعدّ أول شهادة نالها القرآن الكريم من خبراء عصره.

فكان تأثيره تأثير بيان وبلاغة وروعة أسلوب، فالعرب هم أهل اللغة وعشاقها، والقرآن كان معجزًا في بلاغته وبيانه فلما سمعوه تعجبوا واندهشوا؛ فالكلام كلام العرب، لكنه عجيب معجز، لا قِبَل لأحدٍ بتحديه أو نقده، أو حتى الإتيان بمثله، ولو آية واحدة، والذي قاله الوليد عن القرآن صدق وهو كذوب.

فالبشرية لم تعهد كتابًا مؤثرًا في حياتها كالقرآن الكريم، حيث يترك أثره في تصورات الإنسان وفكره ومعتقده، ويزيل حجب الريب والشك، وكان له الأثر الكبير في إسلام عدد كبير من المشركين، حيث إنه يؤثر في النفوس النقية فيجعلها تنساق طوعًا إلى الإسلام، ويؤثر في القلوب النقية فيجعلها ترق وتهتز

وتتصدع من خشية الله، ويؤثر في الأجسام فيجعلها تهدأ ويخف توترها العصبي.. وحق له ذلك لأنه كلام الله النازل من السماء، العارفُ طريقه إلى القلب.

فيترك القرآن الكريم أثرًا في نفس المثقف والعامي، سواء الذي علم التفسير وفهم أبعاد آيِ القرآن أو الذي اقتصر فهمه على معاني بضع آياتٍ وغابَ عنه تفسير معظمها، وأبعد من ذلك ترى أن القرآن قد أحدث خشوعًا ورهبةً في قلوب الشيوخ والشبان والأطفال فلا يقع كلامه على أسماعهم إلا وتراهم خاشعين متأملين، ثم يظهر لكَ هذا الإعجاز ظهورًا واضحًا جليًّا عندما تعلم أن هناك من الغربيين الذين لا يفقهون اللغة العربية ولا يجيدونها لم يكد يقع كلامُ الله على أسماعهم حتى يسيطر عليهم الخشوع وتنهال منهم الدموع. (١)

وأثبتت التجارب العلمية المعاصرة أن القرآن له تأثير واضح على الإنسان فهو يهدئ من توتره، ويساعده على التأمل والتفكير العميق والراحة النفسية. وأن أسباب هذا التأثر ترجع إلى مصدر القرآن الكريم وهو الله سبحانه وتعالى، وإلى ألفاظ القرآن المؤثرة البليغة، وإلى قارئ القرآن المجود له، المؤمن به إيمانًا عميقًا، وإلى السامع البعيد عن الكبر والجحود وهذا هو الإعجاز التأثري أو الأثر النفسيّ الذي قال به الإمام الخطابي في رسالته "بيان إعجاز القرآن"، وجعله وجهًا من وجوه الإعجاز، ورأى هذا الأثر النفسي وجهًا غائبًا عن الناس ولا يعرفه إلا قليلهم، ومعنى الأثر النفسيّ للقرآن عند الخطّابيّ؛ ما يصنعه القرآن في قلوب الناس من اللذة والحلاوة، والروعة والمهابة، فتستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، ويضرب الخطابيّ لذلك أمثلة عن حال العرب الذين تحوّلوا عن عنادهم للدين الجديد عند سماع القرآن وآمنوا به كعمر بن الخطاب، أو كالذين حاروا وذهلوا وبدا ذلك على وجوههم كالوليد بن المغيرة، الذي أرسلته

(١) الإعجاز التأثري للقرآن الكريم للدكتور محمد عطا أحمد يوسف بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية المجلد ١٣، العدد ٣٦ ديسمبر ١٩٩٨م ص٥ وما بعدها بتصرف.

قريش إلى النبي ــ ﷺ ــ ، فقرأ عليه النبيّ ــ ﷺ ــ من سورة السجدة، فلما رأته قريش عندما رجع قالت: أقبلَ الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

يقول الإمام الخطابيّ: " قلت في إعجاز القرآن وجهًا آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا، إذ قرع السمع خلص له إلى القلب من الطلاوة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق. تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها؛ فكم عدو للرسول ــ ﷺ ــ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن الكريم، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيمانًا ". (١)

إن ما حدث مع الوليد بن المغيرة زعيم قريش ليس أمرًا فريدًا، بل هو الأصل في قصة هذا القرآن العظيم، ما استمع له أحدٌ بإنصات وتدبُّر إلا كان هذا ردَّ فعله، وهذا مع كل الناس، مع الخبراء والحكماء، وكذلك مع العامَّة والدهماء فلماذا؟ ما سر هذه الجاذبية القوية للقرآن الكريم؟ ما نواحي هذا الإعجاز؟

تجد هذا السر في أمرين مجملين:

الأول: حلاوة ألفاظه، وجلالة معانيه، وسعتها، وشمولها، فليس في القرآن تفريط بشيء من المعاني الكبيرة في هذه الدنيا: الخالق والخلق، الكون والإنسان، الدنيا والآخرة، الخير والشر، الهدى والضلال، الصلاح والفساد، المسلمون والكفار، الجنة والنار، النفس والمال، الحقوق والواجبات، السلم والحرب، كلها

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، مرجع سابق. ص٧٠

معاني كبيرة يفتح لها القرآن صفحاته فيدون فيها أصول ما يحتاج البشر معرفته منها. إن هذه المعاني بما تتضمنه من الأخبار والشرائع تبهر القارئ، تصدمه، تلهب مشاعره، تحرك شعوره، فتوقظ عقله، وتحيي قلبه، وتمد له من مساحات التفكر والتذكر، إنها تجعل لحياته معنى أكبر مما كان يظن، إن روحه وقلبه وعقله كلها تخفق وهو يقرأ تلك المعاني آية بعد آية، فيحصل لها بها من العلم بأحواله وحياته وآخرته ما لم يكن منه على بال، وما لا يستطيع أن يجده في أي كتاب آخر، قديم أو حديث، ولا يخفف روعة هذه المعاني في النفوس إلا طول العهد بها، وكثرت ملامستها، ولذا فإن قارئها لأول مرة يجد الروعة في أعلى درجاتها.

الثاني: الثقة المطلقة الموجودة في القرآن الكريم، فهو قد نزل بلغة واثقة كل الثقة، لا تخشى التكذيب، ولا تهاب شبه المكذبين، ليس فيها تردد ولا شك، ولا مساحة فيها لاحتمال صدق المخبر، بل هو الصدق الذي لا يشوبه كذب، وترخي عليه بستورها، وتبث فيه من روحها، فلا يستطيع قلبه أن يتجاهلها، أو يعاندها، أو يشكك فيها، بل تنطبع تلك الثقة في نفسه، فيثق بكل حرف في القرآن، وبكل خبر، وبكل أمر ونهي أنه حق من عند الله، ومن عاند فإنما يستطيع المعاندة بلسانه فقط كما قال العليم الحكيم: "وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً"(سورة النمل: ١٤).

المبحث الثالث: عقاب الوليد بن المغيرة بين سورتي المدثر والقلم

بعد أن اجتمع الوليد مع قريش واتفقوا أن يصفوا محمدًا ــ ﷺ ــ للعرب في الموسم أنه ساحر، والوليد يدرك أن السحر بعيد عن رسول الله ــ ﷺ ــ ؛ لذلك قال الوليد أقرب القول أن نقول ساحر ولم يقل هو ساحر، فاندفع الباقون يرددون هذا الذي قاله بين الوفود القادمة بقولهم (سَاحِرٌ كَذَّابٌ) وهم يعلمون أنه الصادق الآمين ــ ﷺ ــ.

وما كان الله – عز وجل– ليدع هؤلاء المعاندين وشأنهم، يزين لهم الهوى أن يتمادوا في التقول على القرآن والخوض فيه، فأخذ بتلابيبهم إلى التي لا قِبَل لهم بها، ليكشف عوارهم؛ لذلك ظل القرآن الكريم يلاحق الوليد وأمثاله في أكثر من مرة وفي أكثر من سورة وبأكثر من أسلوب مما جعله يعيش الصراع الداخلي، فجاءت سورة المدثر وسورة القلم لتصور العقاب الذي ينتظر الوليد بن المغيرة. قال تعالى في سورة المدثر: (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩)عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) (٣٠) (سورة المدثر)

فقد أجمع المفسرون على أن آيات سورة المدثر نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي حيث تناولت الحديث عن قصة الرجل الفاجر: الوليد بن المغيرة الذي سمع القرآن وعرف أنه كلام الله ولكنه في سبيل الزعامة وحب الرياسة زعم أنه

سحر[١]. وجاءت الآيات القرآنية فيها تسلية لرسول الله ـ ﷺ ـ وتنديدًا بالوليد، فقد وصفه القرآن الكريم في سورة المدثر بالثراء وقوة الجاه، المتمثل في الأبناء ووصفه بالعنيد وأن ذلك يؤدي به إلى الهلاك، لأنه أوصله للطغيان والعناد، ومن ناحية أخرى وصف الله حالته في تحديه للقرآن الكريم من تفكير وتقدير ونظر وعبوس وإدبار واستكبار. فالوليد صار شخصًا خطرًا على الدعوة؛ لذلك تولى الله أمره وفصل للخلق حاله ليكون عبرة لكل أمثاله.

بدأت الآيات أولًا وكأنها تمجيد للوليد بشكل تهكمي وتعريض به، مشفوعة بالتنديد والتهديد، ثم تذكيره وتنبيهه أن ما عنده هو تفضل ومنة من الله، قال الطاهر بن عاشور: " تصدير الجملة بفعل ذَرْنِي " في قوله: ﴿ذَرْنِي ومَن خَلَقْتُ وحِيدًا﴾ إيماء إلى أن الرسول ـ ﷺ ـ كان مهتمًا ومغتمًا مما اختلقه الوليد بن المغيرة واتصاله بقوله: (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) يزداد وضوحًا[٢]، فكلمة (ذَرْنِي) تهديد قرآني عنيف أثّر أثرًا بليغًا في نفسية الوليد وهو يسمع هذا الكلام وهو أحد حكام العرب الذين يعلمون بلاغة الكلام بسليقتهم وتهتز لها مشاعرهم طربًا لجمالها فكيف تكون مشاعره عندما يكونا تهديدًا واقعيًا ومصيرًا يقينًا هو ملاقيه.

وجاءت كلمة (وَحِيدًا) منصوبة على الحال وصاحبها الضمير المحذوف العائد على من والتقدير: ومن خلقته وحيدًا لا مال ولا ولد، ثم أعطيته بعد ذلك فطغى! وقيل إن صاحب الحال الضمير المنصوب في ذَرْنِي أي ذَرْنِي وحدي معه فأنا قادر عليه وكافيك أمره، ويجوز أن يكون صاحب الحال التاء في خلقت أي خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد فحين أريد هلاكه لا أحتاج إلى ناصر[٣] .

---

(١) الاعجاز البلاغي في القرآن، محمد حسنين سلامة الطبعة الأولى ١٤٢٣ـــ،٢٠٠٢ ، دار الآفاق العربية٣٧٦

(٢) ينظر التحرير والتنوير ج ٢٩ ص ٣٠٣. دار سحنون للنشر والتوزيع تونس ١٩٩٧م .

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله الزمخشري الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٧ه: ج٤ ص١٥٧.

فقد جعله الله مميزًا عن غيره فقد كان يلقب بريحانة قريش، وأنعم الله عليه بالمال الوفير فقال: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مالا مَمْدُودًا﴾ فالوليد عنده مال ممدود لم يحدده القرآن بل وصفه بقوله (ممدودًا) والذي يدل على الزيادة المستمرة، سواء أكان هذا وصفًا للثروة الحيوانية من إبل وغنم، وهي عنوان الثراء في العرب، أم كان للتجارة والربح، أم كان للبساتين وما فيها من أشجار مثمرة وفواكه متنوعة، وكل هذا جائز فالإبل والغنم تكثر من خلال ما تخلفه من الولادة والإنتاج، والتجارة تزداد وتنمو بالربح، والثمار تكثر ويكون تنوعها فيحصل ثمرها على طوال العام، فالتعبير القرآني يجعلك تسبح بأفكارك لتتصور وتتخيل هذا المال الممدود.

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ وهم الذكور من الولد وهم المحببون إلى النفس خاصة في ذلك المجتمع، وقد تنبه إلى ذلك البقاعي فذكر تلك الملاحظة والرغبة النفسية في كلمة بنين؛ فهي وإن دلت على القوة والعزة لكنها تدل مع ذلك على أن الله أعطاه ما يحبه الناس خاصة في ذلك المجتمع الذي لا يحترم إلا القوي الغني، وزاد من ذلك قوله (شُهُودًا)، فهم حاضرون معه يحيطون به وهو مستأنس بهم ولهم الوجاهة في قريش ويحضرون معه المجامع والمحافل وتسمع شهادتهم كل هذا يحتمله اللفظ ويقبله السياق وهذا من عطاء القرآن في دلالة ألفاظه وكرم معانيه[١] .

﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ قال الزمخشري: وبسطت له الجاه العريض والرياسة في قومه فأتممت عليه نعمتي المال والجاه، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا، ومنه قول الناس: أدام الله تأييدك وتمهيدك يريدون زيادة الجاه والحشمة، وكان الوليد من وجهاء قريش وصناديدهم؛ ولذلك لقب بالوحيد وريحانة قريش، إنها غاية النعيم الذي يناله أمثاله في هذه الدنيا، جاء بالجناس الاشتقاقي بين

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي واسمه: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر (ت: ٨٨٥ هـ) ، ط ١، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي) ج٨ ص ٢٢٥

(مهدت) و(تمهيدًا) ليصور كيف كان عطاء الله له حيث لم يهبه ما ينفع من المال والأولاد فحسب بل أغدق عليه ما يريد من جاهٍ وقوةٍ. (١)

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ ثم يطمع استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه؛ فالإنسان لا غنى له عن فضل الله، وهذا أمر واقع لكنه يصح عندما يكون للعبد وجه يسأل خالقه الذي أنعم عليه، وذلك بطاعة الله وشكره والاعتراف بنعمه وتقديرها، أما أن يكفر بخالقه ويغتر ويتكبر ويطغى ويدعي أنه أهل لذلك وأنه يستحق المزيد فهذا هو الأمر الذي يدعو للاستنكار والاستغراب والعجب وهذا ما ينطبق على الوليد، فـ(ثم) إذًا للتراخي الرتبي الذي يبين أن طمعه في الزيادة مع ما هو عليه أمر أعظم وأعجب من الحالة التي هو فيها، فهو رتبة بعيدة ومستحيلة الوقوع.(٢)

ثم جاء رد الله عز وجل عليه بالردع بقوله: ﴿ كَلَا﴾ وبيَّن السبب بقوله: ﴿إِنَّهُ كانَ لآياتِنا عَنِيدًا﴾ فهذه الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا لبيان علة الردع وسببه(٣). وقطعًا وإبطالًا للطمع في الازدياد من النعمة، حيث (كلا) تفيد الردع والإبطال لطمعه في الزيادة من النعم، والغرض من ذلك تطمين وتسلية النبي، وحكمة ذلك الإبطال والقطع ألا تكون نعمته فتنة لغيره من المعاندين فيغريهم حاله بأن عنادهم لا يضرهم لأنهم لا يحسبون حياة بعد هذه، وأفادت أَنَّ التعليل بأن كفران النعمة سبب لقطعها والمراد بالآيات في (لآياتنا) الآيات القرآنية حيث كان يحاول إبطالها بعد رفضه لها، وعنيدًا أي شديد العناد، والعناد هو مخالفة الصواب ومجادلة الحق البين وعناده هو الطعن في القرآن والتمويه بأنه سحر أو شعر أو كهانة مع تحققه أن القرآن ليس في ذلك من شيء؛ حيث اعترف بذلك، وتقدم الجار والمجرور لآياتنا علي متعلقه عنيدًا للاهتمام والاختصاص(٤). ومقتضي العناد أنه عارف للحق في نفسه مؤمن بالله في عقله إلا أنه يرفض الإيمان بهواه

(١) يراجع الكشاف: ج٤ ص١٥٧

(٢) ينظر التحرير والتنوير ج٢٩ ص٣٠٥

(٣) يراجع الكشاف ج٤ ص١٥٨.

(٤) اللباب في علوم الكتاب ج١٩ ص٥١٠، روح المعاني ج٢١ ص ٤٠٦.

وكبريائه بعيدًا عن العقل والمنطق، وهذا يكشف كوامنه التي كان يتصور أنه أخفاها على الرسول ــ ﷺ ــ إلا أن القرآن أظهر أمره وهذا مما يفت في عضده وينخر في قواه فجعله يتردد في قراراته فيعيد حساباته أكثر من مرة فيصبح ضعيفًا أمام النبي ــ ﷺ ــ ؛ لذلك تجد أن القرآن بيَّن أن الوليد لا ينفع معه إلا الردع المادي والمعنوي باليد واللسان، فجاءت الآيات لتخزيه وتكشف عيوبه وعورته، وتحطُّ من شخصيته وكرامته، وجعلتهُ يعيش حالة من الازدواجية النفسية والصراع الداخلي بين عقله وهواه، وضميره ورغباته، بين إيمانه بالحق وخوفه من لسان قريش.

وذكر البقاعي أن هذه الآية علم من أعلام النبوة، وبرهان قاطع على صحة الرسالة، لأن هذا الكلام لا يصح أن يقوله غير الله العليم الخبير القادر على فعل ما يشاء، فقد تم ذلك بالفعل وتحقق صدقه، فلم يزد مال الوليد بعد ذلك شيئًا بل لم يزل في نقصان حتى هلك(١)؛ فالله عز وجل لم يترك الوليد بن المغيرة، حيث قال لرسوله: (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) فتوعده الله بالعذاب وعالجه بالفقر بعد الغنى.

﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ تبين الآية أن الله سيجعل الوعيد للوليد مساءة له ومسرة للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أي سينقلب حاله من حال راحة وتنعم إلي أسوأ حالة في الدنيا، ثم إلي العذاب الأليم في الآخرة، بأن يجعل الله له جبلاً من نار في جهنم يكلف بصعوده، كلما صعد سقط وذلك أبداً؛ لأنه فكر في شأن القرآن ماذا يقول فيه حين طلبت منه قريش ذلك وأعمل فكره؛ ليبتكر عذرًا يموه ويروجه بين الناس في وصف القرآن؛ ليزيل منهم اعتقاد أنه وحي من عند الله، وهو تعبير مصور لحركة المشقة فالتصعيد في الطريق هو أشق السير وأشده إرهاقًا فإذا كان دفعًا من غير إرادة من المصعد كان أكثر مشقة وأعظم إرهاقًا (٢)، وتلاحظ التعبير بالاستعارة التصريحية الأصلية لأن الصعود حقيقة في العقبة الشاقة المصعد.

---

(١) يراجع نظم الدرر، مرجع سابق، ج٨ ص٢٢٥.

(٢) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٢١هـ، انظر: ج٣٠ / ٧٦

أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد عن رسول الله (وَيْلٌ: وَادٍ فِي جَهَنَّمَ، يَهْوِي فِيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ، وَالصَّعُودُ: جَبَلٌ مِنْ نَارٍ، يَصْعَدُ فِيهِ سَبْعِينَ خَرِيفًا، ثُمَّ يَهْوِي بِهِ كَذَلِكَ فِيهِ أَبَدًا) (١)

فاستحق الوليد بذلك التفكير والتقدير لعنة الله في الدنيا والأخرة؛ حيث نظر في وجوه الحاضرين يستخرج آراءهم في انتحال ما يصفون به القرآن، وقطَّب وجهه لما استعصي عليه ما يصف به القرآن، ولم يجد مغمزًا مقبولًا، وكلح وجهه، وتغير لونه خوفًا حين لم يجد ما يشفي غليله من مطعن في القرآن لا ترده العقول، وبعد استقراء أحوال القرآن أنتج له أنه من قبيل السحر، وأنه سحر مروي عن الأقدمين؛ لأن السحرة وأعمالهم ليست مماثلة للقرآن ولا لأحوال الرسول، فزعم أنه أقوال سحرية غير مألوفة؛ ليخلص في النهاية إلي النتيجة المقررة في ذهنه مسبقًا وهي أن القرآن قول البشر(٢)

ثم يتهكم القرآن بطريقة تفكيره فجاء قوله ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وقَدَّرَ﴾ تعليلًا للوعيد السابق ﴿كَلا إِنَّهُ كانَ لآياتِنا عَنِيدًا﴾. إِنَّهُ فَكَّرَ وقَدَّرَ، هذه عملية ذهنية، رتب فيها أمورًا في عقله وفؤاده، فالقرآن وصف الحالة الذهنية والمحاورة الداخلية التي عاشها الوليد مع نفسه يعد فيها الأمر إعدادًا محكمًا فاستحق الهلاك؛ لأنه أعد هذا الطعن. والمعنى أنه أولًا: فكر وثانيًا قدر: وثالثًا: نظر في ذلك المقدر، فالنظر السابق للاستخراج. والنظر اللاحق للتقدير وهذا هو الاحتياط. فهذه المراتب الثلاثة متعلقة بأحوال قلبه(٣).

ثم ورد التعجب من تقديره في قوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ إنه أصاب المحز ورمى الغرض الذي قصدته قريش، ويجوز أن يكون ذلك ثناء عليه على

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، القاهرة، انظره في مسند: أبي سعيد الخدري: الحديث رقم: ١١٧١٢

(٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير لأبي بكر الجزائري، مرجع سابق، انظر: ج٥ ص ٤٦٦

(٣) ينظر التفسير الكبير للفخر الرازي، مرجع سابق، ١/ ٥٨٣

طريق الاستهزاء، أو حكاية لقولهم كأن القرآن يتهكم بهم وبإعجابهم بتقديره، والفاء واردة للدلالة على التعقيب لأن الكلمة لما خطرت بباله لم يتمالك أن ينطق بها من غير تلبث(١).

يقول الكرماني: "أعاد (كَيْفَ قَدَّرَ) مرتين وأعاد (قَدَّرَ) ثلاث مرات؛ لِأَن التَّقْدِير إِنَّه أَي الْوَلِيد فكر فِي بَيَان مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا أَتَى بِهِ وَقدر مَا يُمكنهُ أَن يَقُول فيهمَا فَقَالَ الله سُبْحَانَهُ (فَقتل كَيفَ قدر) أَي القَوْل فِي مُحَمَّد (ثمَّ قتل كَيفَ قدر) أَي القَوْل فِي الْقُرْآن" (٢)

ونقل ابن جزي في تفسيره عن ابن عطية قوله: "ويحتمل أن يكون مقتضاه استحسان منزعه الأول حين أعجبه القرآن فيكون قوله: قتل، لا يراد به الدعاء، وإنما هو كقولهم: قاتل الله فلانًا ما أشجعه، يريدون التعجب من حاله واستعظام وصفه. وقال الزمخشري: يحتمل أن يكون ثناء عليه على طريقة الاستهزاء أو حكاية لقول قريش تهكمًا بهم".(٣)

ويقول الألوسي في تفسيره ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تكرار للمبالغة كما هو معتاد من أعجب غاية الإعجاب. والعطف بثم للدلالة على تفاوت الرتبة. وأن الثانية أبلغ من الأولى، فكأنه قتل بنوع ما من القتل لا بل قتل بأشده ولذا ساغ العطف فيه مع أنه تأكيد و(ثم) فيه وفيما بعد على معناها الوضعي وهو التراخي الزماني مع مهلة أي ثم فكر في أمر القرآن مرة بعد أخرى. (٤). وتلاحظ الإطناب بتكرار الجملة لإفادة التأكيد والمبالغة في التشنيع.

---

(١) ينظر الكشاف، للزمخشري، مرجع سابق، ج٤ ص١٥٨.

(٢) أسرار التكرار في القرآن الكريم، أو (البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان)، لمحمود بن حمزة بن نصر الكرماني (ت:٥٠٥ه)، تح عبد القادر أحمد عطا ص ٢١٠، دار الاعتصام ــ القاهرة ــ الطبعة الثانية ١٣٩٦ هـ ص:٢٤٢

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم محمد بن أحمد بن عبد الله بن جزي الكلبي الغرناطي(ت:٧٤١ه)، دار الكتاب العربي لبنان ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م انظر: ط٤ ١/ ٥٠٥

(٤) ينظر روح المعاني للألوسي، مرجع سابق، ٢١/ ٤١٥

الوليد فكر وقدر وعرض القرآن الكريم على كل أساليب البيان المعروفة لدى العرب، ثم بعد ذلك أعاد تفكيره ثانية. وقدر مرة أخرى عكس ما قدره في الأولى.

تجد أنَّ الوليد استخدم كل فنون التفكير العلمي؛ فقد استخدم القياس حينما قاس النظم القرآني على أساليب البيان عندما قال لقريش عند اجتماعهم عن صورة نظم القرآن العجيبة المخالفة لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها وسجعها ورجزها وهزجها وقريضها ومبسوطها ومقبوضها. أنه ليس من كلام الجن أو البشر، واستخدم الاستقراء حينما عرض النظم القرآني على كل الفنون المتاحة والمعروفة في ذلك الوقت ورفض أن يكون الرسول ـ ﷺ ـ كاهنًا أو مجنونًا أو شاعرًا أو ساحرًا.

ومن الملاحظ هنا أن استقراءه تام غير ناقص لأنه عرض لجميع فنون المعرفة المتاحة والمعروفة عند العرب في ذلك الوقت.

واستخدم المعاندة فبعد أن شهد شهادة لم يشهدها أحد في حق القرآن الكريم عاد وأنكرها بل قال عكسها! فالقرآن يدعو الناس ليتفكروا لكن بشرط أن يكون فكرهم نابعًا من عقل سليم، أما إذا اختلت عقول البشر وساء فكرهم وخرجوا على الناس بالأباطيل فلابد أن تتم المحاسبة على ضلال التقدير ليبقى الكون نقيًا صالحا للبقاء، وليس للأهواء.

والعجيب فيما حكاه القرآن عن الوليد بن المغيرة أنه وصفه وصفًا شاملًا لكل أحواله ووراء ذلك جمل من الدلائل والأسرار فالقرآن هنا يعطي الصورة والحركة ويشخص الحدث وينقل الخبر مجسمًا كأنك تراه. فوصف القرآن شكله وانفعاله الخارجي وأثر الفكر على جوارحه وكيف أثر عليه فكره واستحوذ عليه حتى طفح على جوارحه فتفاعلت حتى صار كتلة في الفساد.

فقال تعالى: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وبَسَرَ﴾ يعني قطب وجهه حين ضاقت به الحيل (وبسر) زاد وجهه تقطيبًا وهو يستلهم فكره المعوج ليسعفه بما يفتري به على

رسول الله ــ ﷺ ــ الوليد يفكر ويفكر وتظهر علامات على وجهه من شدة التفكير فتظهر ملامحه بسرًا وعبوسًا لأنه وصل إلى نتيجة لا ترضي غروره ولا تتناسب مع أهواءه، ولا ترضي مجتمعه؛ لذا كلح بوجهه كلوح المتكبر المغرور بعقله.

يرسم الحق سبحانه من خلال النص القرآني صورة مبدعة عن الوليد بن المغيرة، تحقق فيها الإمتاع حيث وصفه القرآن الكريم وصفًا شاملًا لكل أحواله؛ فالرجل يكد ذهنه ويعصر أعصابه ويقبض جبينه وتكلح ملامحه وقسماته. كل ذلك ليجد عيبًا يعيب به هذا القرآن، وقولًا يقوله فيه، إن القرآن الكريم وصف الحالة الذهنية والمحاورة الداخلية التي عاشها الوليد مع نفسه يعد فيها الأمر إعدادًا محكمًا كي لا ينهزم أمام النبي ــ ﷺ ــ والذين معه، إنه لا يريد أن يضعف أمام هذا الرجل الذي جاء بدين جديد سيغير أحوالًا ويبدل أمورًا لا يرضى بتبديلها أهل الفسق والفجور. إنه فكر وقدر هذه عملية ذهنية، رتب فيها أمورًا في عقله وفؤاده. فخرج بكلمته الشنيعة في حق القرآن: ﴿ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ* إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾، فقصر القرآن على السحر وأنه قول بشر وهو يقصد أنه سحر فائق وعجيب وليس له نظير [١] أي يرويه محمد ــ ﷺ ــ عن غيره [٢].

فجاء قوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ جملة إسمية غرضها الحصر والقصر؛ أي أن القرآن لا يخرج عن كونه قول البشر واسم الإشارة هذا يعود على القرآن، وجاء بدون حرف عطف لأنه تأكيد لما قبله، ولما كان السحر منه القولي والفعلي جاءت الفاصلة مبينة النتيجة التي توصل إليها وهو أن القرآن الكريم من قبيل

(١) يراجع التحرير والتنوير ج٢٩ ص ٣١٠

(٢) ينظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين بن محمد الشنقيطي ٥٨ / ٢ ، دار الفكر بيروت لبنان ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م .

السحر القولي، فالفاصلة تمثل نتيجة ما مر به من التفكير والتردد في التفكير وإمعان النظر، وهذا هو هدفه وغايته أن القرآن ليس وحيًا من عند الله".(١)

يبين القرآن الجزاء على هذه النتيجة: بقوله تعالى: (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) ليحقق بذلك الإقناع بأن من تجرأ على القرآن الكريم سوف ينال عقابه، ثم يبين هول سقر بقوله تعالى: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ)، أي: وأي شيء أعلمك ما سقر؟ أي أنت لا تدري عظمتها، وهول أمرها إلا إذا أعلمناك بذلك. وما استفهامية، يستفهم بها عن حقيقة الشيء وماهيته، وهو استفهام يراد منه التعجب من هول سقر وعظمتها ومثل هذا الاستفهام في الآية يتضمن معنى نفي علم المخاطب بما هو مسئول عنه، أي: أنت لا تدري مهما انطلقت سابحًا في التصور مبلغ هول وعظمة وشدة عذاب سقر إلا إذا أعلمناك بذلك وفي هذا دليل على أنها أمر خطير جدًا. ويظهر أن هذه الصيغة (وَمَا أَدْرَاكَ) هي من صيغ التعجب القرآنية المبتكرة ضمن أصول وقواعد اللسان العربي، وتلاحظ أن صيغة ما أدراك في القرآن الكريم غالبًا ما يتبعها وصف للمسئول عنه لذلك قال تعالى: (لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ) أي لا تبقي لحمًا، ولا تذر عظمًا، وإنما تأتي عليه جميعًا. (لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ) أي: تلوح الجلد فتحرقه وتغير لونه. (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) أي: وعلى النار خزنة من الملائكة عدتهم تسعة عشر ملكًا يلون أمرها، وجاء بلا تمييز أو تعريف؛ للتعظيم وإطلاق التفكير فيهم. هذه الصورة القرآنية للمصير الذي ينتظره الوليد وأمثاله بعد أن وصفه القرآن بهذا الأسلوب وهذه البلاغة، جعلته يعيش جهنم وأهوالها قبل أن يصلاها، وكأنها تلسع وجهه وبشرته قبل أن يراها فيعيش انهزامًا نفسيًا ورعبًا داخليًا تجعله يتمني على نفسه لو لم يسمع هذا الكلام أو انه آمن ولم يواجه الرسول ــ ﷺ ــ

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٩ / ٣٠٧

عقاب الوليد بن المغيرة في سورة القلم:

إذا كان الوليد بن المغيرة قد وصف رسول الله ـ ﷺ ـ كذبًا بأنه ساحر وأخبر أن سحره يأخذه ويأثره عن غيره فقد ذمه الله عز وجل ووصفه بتسع صفات ذميمة، صادقة ومتحققة فيه وذلك في سورة القلم يقول الله عزّ وجلّ ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ (سورة القلم: ١٠-١٦). وهذه الأوصاف نزلت في الوليد بن المغيرة وعليه جمهور المفسرين ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة قال ابن عباس: لا نعلم أن الله وصف أحدًا بما وصف به، ولما نزلت الآية قال لأمه: إن محمدًا ـ ﷺ ـ وصفني بتسع صفات أعرفها غير التاسع منها فإن لم تصدقيني الخبر ضربت عنقك؛ فقالت إن أباك عنين، فخفت على المال فمكنت الراعي من نفسي فأنت منه، فلم يعرف أنه ابن زنا حتى نزلت الآية، وقيل نزلت في الأسود بن عبد يغوث وقيل في الأخنس بن شريق وقيل: في أبي جهل والراجح الأول."[١]

وأعاد فعل النهي عن الطاعة: (وَلَا تُطِعْ) لمن هذه صفاتهم للاهتمام بهذا الأدب، فلم يكتف بدخول أصحاب هذه الأوصاف في عموم المكذبين، في قوله تعالى (فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ) ولا بتخصيصهم بالذكر بمجرد عطف الخاص على العام بأن يقال: ولا كل حلاف، بل جيء في جانبهم بصيغة نهي أخرى مماثلة للأولى ولتفيد تسليط الوعيد الخاص على أصحاب هذه الصفات الخاصة زيادة على وعيد المكذبين [٢]، فجاء قوله: (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ) بعد قوله: (فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ) من باب: عطف الخاص على العام؛ لأن بعض هذه الصفات داخلة في عموم المكذبين، ولكن أعاد ذكرهم مرة أخرى في عنوان خاص مبالغة في التحذير من

(١) ينظر الكشاف ج٤ ص١٢٧ ورح المعاني ج٢٩ ص٢٨ وحاشية الصاوي على الجلالين ج٣ ص٢٢١

(٢) ينظر التحرير والتنوير ج٢٩ ص٦٨ـــ ٧٥ بتصرف.

هذه الطائفة؛ إذ لديها القدرة على المخادعة والمداهنة وستر هوياتهم بحلف الأيمان الكواذب والطعن من الخلف بالهمز واللمز والنميمة.

والنهي هنا (وَلَا تُطِعْ كُلّ حَلّافٍ) خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى بلاغي هو التهييج والإلهاب أي دُمْ على ما أنت عليه من عدم الطاعة". (١)

و(حَلّافٍ) أي كثير الحلف في الحق والباطل وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف، وهو على وزن فعال صيغة مبالغة كناية عن عدم المبالاة بالكذب والأيمان الفاجرة. (مَّهِينٍ) صفة مشبهة وهي فعيل بمعنى فاعل وهو الفاجر الحقير في الرأي والتمييز أو كذاب، وتقديم وصف (حَلّافٍ) على سائر الأوصاف الزاجرة عن الطاعة لكونه أدخل في الزجر(٢). وكلمة (كل) موضوعة لإفادة الشمول والإحاطة لأفراد الاسم الذي تضاف هي إليه فهي تفيد النهي العام عن طاعة كل فرد من أفراد أصحاب هذه الصفات التي أضيفت إليها كل بالمباشرة وبالنعوت.

(هَمَّازٍ) عياب أو مغتاب مبالغة من الهمز، وهو في اللغة الضرب باليد والعصا ونحوهما، واستعير للعياب الذي يعيب على الناس كأنه يضربهم بيده وشاع ذلك حتى صار كالحقيقة، (مَّشَّاء) يمشي بالإفساد بين الناس مبالغة من المشي، أي أنه كثير السعاية بين الناس ووصفه بالمشي للمبالغة في الفعل ويلاحظ التعبير بالاستعارة لأن الهمز حقيقة في الضَّرَّاب والطَّعَّان، فاستعير للمغتاب الذي يذكر الناس بالمكروه ويظهر عيوبهم ويكسر أعراضهم كأنه يضربهم بأذاه إياهم.

(بِنَمِيمٍ) والنميم قيل: مصدر كالنميمة، وقيل هو جمعها، أي اسم جنس كتمرة وتمر، وهو نقل الكلام الذي يسوء سامعه ويحرش بين الناس وقال الزمخشري: والنميم والنميمة السعاية، إذ يتجشم المشقة لأجل النميمة، لأن

(١) ينظر روح المعاني ج٢٩ ص٢٧ وحاشية الشهاب ج٨ ص٢٢٨.
(٢) ينظر تفسير أبي السعود ج٩ ص ٩ــ ١٣

أسماء الأشياء المحسوسة أشد وقعًا في تصوير السامع من أسماء المعقولات فوصف المشي بالنميمة فيه تصوير لحال النمام.

(مَنّاعٍ لِّلْخَيْرِ) بخيل بالمال عن الحقوق، أو مناع أهله الخير وهو الإسلام فذكر الممنوع منه دون الممنوع كأنه قال: مناع من الخير، (مُعْتَدٍ) ظالم، (أَثِيمٍ) آثم، (عُتُلٍّ) الذي يعتل الناس أي يحملهم ويجرهم إلى ما يكرهون من حبس وضرب، وقيل: العتل الشديد الخصومة، وقيل: الغليظ الجاف (بَعْدَ ذَلِكَ) أي بعد ما وصفناه به أو بعد ما ذكر من المثالب والنقائص

(زَنِيمٍ) الذي ينسب إلى قوم وليس منهم وأصله من الزنمة وهي ما بقى من جلد الماعزة معلقًا في حلقها يترك عند القطع، فاستعير للدعي لأنه كالمعلق بما ليس منه [١].

وموقع (بَعْدَ ذَلِكَ) موقع الجملة المعترضة والظرف خبر لمحذوف تقديره: هو بعد ذلك ويجوز اتصال: (بَعْدَ ذَلِكَ) بقوله: (زَنِيمٍ) على أنه حال من (زَنِيمٍ) و(بعد) هنا كـ(ثم) الدالة على التفاوت الرتبي فتدل على أن ما بعدها أعظم في القباحة [٢] .

وجاءت هذه الصفات صفات مبالغة ونوسب فيها، فجاء حلاف وبعده مهين، ثم جاء هماز مشاء بنميم بصفتي المبالغة، ثم جاء مناع للخير معتد أثيم صفتا مبالغة فكل صفة ناسبت ما قبلها وما بعدها[٣]. لاحظ كيف يندد به القرآن الكريم، ويقرعه في هذه الآيات ولا تطع كل حلاف مهين استخفاف واستحقار لهذا النوع من البشر، وكأن القرآن الكريم يشير الى قضية نفسية واجتماعية وهي أن الإنسان الذي يكثر اليمين فانه لا يحترم يمينه وذو نفس مهينة حقيرة لا كرامة

(١) ينظر تفسير الفخر ج٣٠ ص٨٣ ــ ٨٥ والدر المصون ج٦ ص٢٥١ وحاشية زادة ج٣ ص٥٢٧ وروح المعاني ج ٢٩ ٢٧التحرير والتنوير ج٢٩ ص ٦٨ ــ ٧٥

(٢) ينظر التحرير والتنوير ج٢٩ ص٧٤ ــ ٧٥

(٣) ينظر البحر المحيط ج٨ ص ٣٠٩ــ ٣١٠ بتصرف.

لها ولا عزة ومن يكثر الإيمان بلا مبرر فهو لا يحترم يمينه ولا من يحلف به ومنهم الوليد بن المغيرة، ثم يفضحه ويشهر به في صفة يظن أنها تخفي على الآخرين، فيبين القرآن أنه هماز يطعن بالآخرين ويعيبهم من خلفهم، وهذا يدل على جبن وسوء سريرة وخلق سيء، وهو مع ذلك يسعي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم ويؤجج الفتن والأحقاد والضغائن، ومن مثل هذا لا يكون محترما في المجتمع ولا محبوبًا، ثم أنه مناع للخير، فهو لا يفعل الخير ولا يدع الآخرين يفعلونه، وجاء في تفسير الرازي:" أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان له عشرة من البنين وكان يقول لهم وما قاربهم لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشيء أبدًا فمنعهم الإسلام فهو الخير الذي منعهم". (١)

يؤكد القرآن على عيوبه ليعزله عن المجتمع ويمنع تأثيره السلبي على الرسالة، ثم يصفه القرآن الكريم بما ينفر منه المجتمع أنه معتد أثيم فإنه يحمل روح العدوانية على المجتمع، كثير الآثام والخطايا على مجتمعه ربا وزنا وأكل المال بالباطل وسلب الفقراء والمستضعفين حقوقهم وغيرها من الاعتداءات، ثم تأتي الضربة القاضية على الوليد عندما يصفه القرآن الكريم بقوله تعالى: (عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ) فظ فاحش كثير الخصومة ومع ذلك فهو زنيم أي دعي لا أب له معروف وهذا أشد ما يسب به عند العرب ويلاحظ التدرج في وصف الوليد يقول الدكتور محمد أبو موسى: "مما هو ناظر إلى منازل المعاني في ترتيبها قوله تعالى " وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ" قالوا : إن ترتيب هذه الآيات منظور فيه إلى ترتيب منازلها، ومراتبها فأفظعها وأشنعها، وأدلها على قساوة النفس كثرة الأيمان الكاذبة، ثم تليها الغيبة، فالهماز هو المغتاب، ثم النميمة، وقد لحظ مع النميمة ذكر المشاء لأن النمام يفتقر إلى المشي من حيث كانت النميمة نقل الحديث من شخص إلى آخر، وجاء

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي، مرجع سابق، انظر: ج٣٠ ص:٦٠٤.

وصفه بأنه زنيم في ساقة هذه الصفات لأن ذلك هو الأنسب لمعنى هذه الصفة، فالزنيم هو الدعي أي المنسوب إلى غير أبيه، فهو ملحق بمن ينتسب إليهم. (١)

ثم قال (أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) يجوز أن يكون متعلقًا بما قبله وأن يكون متعلقًا بما بعده، أما الأول فتقديره: ولا تطع كل حلاف مهين أن كان ذا مال وبنين، أي لا تطع مع هذه المثالب ليساره وأولاده وكثرته. وأما الثاني: فتقديره: لأجل أن كان ذا مال وبنين (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)، على تقدير لام العلة محذوفة قبل أن وهو حذف مطرد.

وقرئ: (أأن كان) على الاستفهام وهو استفهام إنكاري توبيخي والتقدير: أن كان ذا مال كذب، أو أتطيعه لأن كان ذا مال. (٢) وقرئ: (أئذا تتلى) على الاستفهام تقريع وتوبيخ (٣)، على قوله القرآن أساطير الأولين لما تليت عليه آيات الله، وأساطير تأتي في اللغة بمعنيين أباطيل، وتأتي بمعنى مكتوبات الأولين ومسطوراتهم.

ويتهدد الله تعالى هذا العتل الزنيم الذي لا يشكر الله على ما أنعم به عليه من أموال وبنين، بأنه سيبين أمره للناس حتى يعرفوه، كما يعرف الفيل بالسمة على الخرطوم، فبعد أن ذكر قبائح أفعاله وأقواله ذكر ما يفعل به على سبيل التوعد فقال: (سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ) فصل بينه وبين الجملة السابقة لشبه كمال الاتصال، لأن الجملة الثانية قوية الصلة بالجملة الأولى لأنها جواب عن سؤال ينشأ عن الجملة الأولى فكأن السامع يسأل: ما جزاء أصحاب هذه الصفات من الله على ما أتوه من القبائح والإجتراء على ربهم؟

---

(١) خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني د/ محمد أبو موسى مكتبة وهبة ط ٩ ١٤٣٥ ه ٢٠١٤م انظر: ص: ٤٠٥

(٢) ينظر: تفسير الفخر ج٣٠ ص٨٥ ــ ٨٦ والتحرير والتنوير ج٩ ص ٧٦.

(٣) ينظر: البحر المحيط ج٨ ص٣١١ والدر المصون ج٦ ص ٣٥٣ ــ ٣٥٤.

والوسم اسم الكية وما يشبهها يقال: وسمته فهو موسوم بسمة يعرف بها، إما كية وإما قطع في أذنه علامة له. وضمير المفرد الغائب في قوله (سَنَسِمُهُ) عائد إلى كل حلاف باعتبار لفظه، وإن كان معناه الجماعات، فإفراد ضميره كإفراد ما أضيف إليه كل من الصفات التي جاءت بحالة الإفراد والمعنى: سنسم هؤلاء على الخراطيم، والخرطوم أريد به الأنف، والظاهر أن حقيقة الخرطوم الأنف المستطيل كأنف الفيل والخنزير ونحوهما من كل أنف مستطيل، وهو يستعمل حقيقة ومجازا (١)

وحقيقة الخرطوم مخطم السبع أي أنفه مثل الأسد فإطلاق الخرطوم على أنف الإنسان هنا استعارة لغوية كإطلاق المشفر وهو شفة البعير على شفة الإنسان، وكإطلاق الجحفلة على شفة الإنسان وهي للخيل والبغال والحمير (٢)

فالوسم تمثيل حيث استعار الخرطوم للأنف لأن الأصل الخرطوم للفيل واستعارته لأنف الإنسان تجعله في غاية الإبداع وقد تحقق بهذه الاستعارة الإمتاع؛ لأن الغرض هو الاستهانة والاستخفاف به تتبعه كناية عن التمكن منه وإظهار عجزه، وذكر الخرطوم فيه جمع بين التشويه والإهانة فإن الوسم يقتضي التمكن وكونه في الوجه إذلالًا وإهانة، وكونه على الأنف أشد إذلالًا، فهذا التعبير: (سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ) كناية على مهانته وإظهاره في أحط دركات الذل والاحتقار، إذ الوسم على الأنف دليل على تمكن الفاعل وعجز صاحب الأنف، ولما كان الوجه أشرف وأرفع ما في المخلوق، والأنف أسمى ما في الوجه، لأنه مكان العزة وموضع الحمية اشتقوا منه (الأَنَفَة) فقالوا: في أوصافهم لبعض أصحاب المنعة: حمى الأنف، شامخ العرانين، ووصفوا الذليل بأنه جدع أنفه ورغم أنفه، فهذا دليل على غاية الإذلال التي قصدها الله سبحانه إذ استبلده واستقصه فصيره (كالبهيمة) التي لا تملك الدفاع عن وسمها في أنفها، فإذا كان في ذلك الأمر ما

(١) ينظر: المحرر الوجيز ج١٥ ص ٢٣٦ ــ ٢٣٧.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ج٢٩ ص ٧٦ ــ ٧٨.

يشين الحيوان، فما عساه أن يكون في أنف الإنسان الذي هو أكرم عضو في دلالته الخُلقية والخَلقية والاعتبار المكاني السامي في وجوده. (١)

وقال أبو العالية ومقاتل واختاره الفراء: " يُسَوِّد وجهه قبل دخوله النار، وذكر الخرطوم والمراد الوجه لأن بعض الوجه يؤدي عن بعض" (٢)

وعلى ذلك يكون هذا التعبير من قبيل المجاز المرسل بعلاقة الجزئية فقد ذكر الجزء وهو الأنف وأراد الكل وهو الوجه.

وهكذا يتبين من خلال سورة المدثر والقلم تهديد الله للوليد بن المغيرة ومن على شاكلته ممن أنعم عليهم بالمال والبنين ومهد لهم في الحياة فطغوا وتجبروا بالعذاب في الدنيا والآخرة. وأن الأخلاق الذميمة تؤدي بصاحبها إلى خزي الدنيا وعذاب الآخرة، وأن كثرة المال والبنين ليس دليلًا على تكريم الله للعبد وإنما هو بتوفيقه للعمل الصالح.

(١) ينظر: التحرير والتنوير ج٢٩ ص ٧٦ ــ ٧٨ وفن الأسلوب دراسة وتطبيق عبر العصور الأدبية د/ حميد آدم ص ٢٩٤ ط دار الصفا للنشر

(٢) ينظر: البحر المحيط ج٨ ص٣١١

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على خـــاتم الأنبيـــاء والمرسلين سيدنا محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

أما بعد:

فقد تم التعرف على الوليد بن المغيرة وطريقته في حجاج قومه في وصفه للقرآن الكريم بنعوت الجمال، ثمَّ وصفه بالسِّحر، وأنَّ محمدًا ــ ﷺ ــ ساحر، ثُمَّ أوضحت العقاب الذي أعده الله للوليد في الدنيا والأخرة، وبعد أن وصل البحث إلى منتهاه أصلُ منه إلى عدة نتائج منها:

. الحجاج باعتباره آلية بيانية موجودة في كل الخطابات حتى الكلام العادي، والذي يكون بين شخصين في محاورة عادية، فكل منهما يسعى إلى إقناع الآخـــر بوجهة نظره أو رأيه.

. التطور الذي عرفته البحوث الحجاجية نابع مـــن اســـتلهام المـــوروث البلاغي عند العرب من خلال إحياء التراث البلاغي؛ حيث كان الحجاج موجـــودًا منذ العصر الجاهلي، فالعرب استخدموه في التعبير عن أغراضهم ومقاصدهم وإن لم يضعوا له مصطلحًا محددًا، وذكر القرآن الكريم الحجاج في آيات كثيرة، وتجده أيضًا في الحديث النبوي الشريف، واستعمل أقطاب البلاغة الحجاج ووظفوه فـــي مؤلفاتهم، وشكل بنية أساسية في إبداعاتهم.

. البلاغة أشمل من الحجاج؛ لأن الحجاج نوع أو جنس من القـــول شـــأنه شأن أي لون بلاغي كالبرهان والمذهب الكلامي أو غيره مـــن الفنـــون القوليـــة الأخرى، غير أنه يتميز بكونه موجهًا لأغراض بلاغية وإقناعية. فهدف البلاغـــة هو الإفهام والتأثير وتحقيق الإقناع والاستمالة، وهو الهدف نفسه الـــذي يســـعى لتحقيقه الحجاج.

. الوليد بن المغيرة لم يعلم أسس الحجاج المعروفة الآن، إلا أنه قد طبق هذه الأسس بكاملها، فأخذ يعرض الفكرة ثم الرد عليها ودحضها وتفنيدها، وذكر الأدلة على صحة ما يقول وربط المقدمات بالنتائج.

. الوليد بن المغيرة يمتلك عقلية حجاجية مكنته من بناء حواره بناءً حجاجيًا قادرًا على الوصول إلى الأهداف والغايات التي سطرها منذ البداية وهي اقناع قومه بأن ما يقوله محمد سحر.

. تم التعرف على الوليد وأسرار بيانه وتفرده في كلامه فأنتج قولًا متميزًا بالغ الجودة، وفي الوقت نفسه حقق أهدافه، فجمع بين الجانب النفعي والجانب الجمالي. بين الإقناع والإمتاع.

. أنه تميز في حواره بكونه يعتمد كثيرًا على عناصر الإقناع، وبغلبة الطابع الاستدلالي والحجاجي عليه لاعتماده على جملة من الأدوات والتقنيات التي ساهمت في تحقيق غرضه من الحوار، وهو تحقيق الإقناع والإمتاع معا.

. تجد الوليد في حواره يجيد استخدامه للأدوات اللغوية، والوسائل البلاغية والأساليب الإنشائية، مع حرصه الشديد في اختياراته اللفظية والتركيبية، ومراعاته للمقام ومقتضيات الحال، ونوع الحجج التي وظفها الوليد، وكان لها دور كبير في العملية الإقناعية والحجاجية.

. أدرك الوليد أنّ القرآن لا يشبه كلام الإنس، وهو فوق كلامهم، ولما كان مقتضى العجز، اعتناق الدين الّذي كان النبي ــ ﷺ ــ يدعو إليه، خدع عقله وعقول قومه بتفسيره بالسحر، بحجة أنّ السحر يفرّق، والقرآن أيضًا فرّق بينهم.

. القرآن يدعو الناس ليتفكروا لكن بشرط أن يكون فكرهم نابعًا من عقل سليم، أما إذا اختلت عقول البشر وساء فكرهم وخرجوا على الناس بالأباطيل فلابد أن تتم المحاسبة على ضلال التقدير ليبقى الكون نقيًا صالحًا للبقاء، وليس للأهواء.

. أن الوليد قد وصف القرآن بأرقى الكلمات، فقد جمع بين الفصاحة والبيان، فكان قوله بليغًا مقنعًا في الآن ذاته.

. يعد الوليد أوّل من تنبّه إلى عظمة القُرآن وآي الذكر الحكيم، وأول من شهد بإعجاز القرآن الكريم وجاءت كلمته المأثورة عن القرآن الكريم، جامعة لكثير من وجوه إعجاز القرآن الكريم والتي تحدث عنها العلماء.

. التأثير بالقرآن على سامعيه، فالوليد ابن المغيرة كبير قريش ومن أكبر سادتهم، ومع ما يحصل عادة للكبراء من التكبر والتعاظم فإنه قد تأثر بالقرآن ورق له واعترف بعظمته ووصفه بذلك الوصف البليغ المؤثر وهذا هو الإعجاز التأثري للقرآن الكريم فهناك ألفاظ تحمل شحنات انفعالية لتحدث تأثيرات في المتلقي ترهيبًا أو ترغيبًا، وهذا ما حدث للوليد بن المغيرة عندما سمع القرآن من رسول الله ــ ﷺ ــ.

. جرأة الوليد بن المغيرة على الله (عز وجل) وتكلفه فيما يصف به القرآن الكريم واحتياله في ذلك وانغماسه في تفكيره وتقديره، وشدة إدباره عن الحق، واستكباره حتى زعم أن القرآن الكريم ما هو إلا سحر يؤثر، ومن كلام البشر إرضاءً لقومه، بعد اعترافه بأن ما سمعه من محمد ــ ﷺ ــ ليس من كلام البشر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة ....

. أن دأب المكذبين للرسل والدعاة رميهم بأبشع الصفات تنفيرًا للناس منهم ولكن الله رد عليهم وتوعدهم بالعذاب في الدنيا والآخرة

. ظل القرآن يلاحق الوليد وأمثاله في أكثر من مرة وفي أكثر من سورة وبأكثر من أسلوب مما جعله يعيش الصراع الداخلي فجاءت سورة المدثر وسورة القلم لتصور العقاب الذي ينتظره.

هذا ما منَّ الله به، ثم ما وسعه الجهد، وتوصل إليه الفهم المتواضع، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن فيه خطأ أو نقص فمن نفسي، والكمال لله وحده، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، للفاكهي، تح د. عبد الملك عبد الله دهيش، دار خضر بيروت ط٢ ١٤١٤هـ .

٢- استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية عبد الهادي بن ظافر الشهري: دار الكتاب الجديد بيروت لبنان ط الأولى ٢٠٠٤م.

٣- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمود شاكر ط الأولى مطبعة مدني بالقاهرة ١٤١٢ هـ ١٩٩١م.

٤- أسرار التكرار في القرآن الكريم، محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، تح عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام ــ القاهرة ــ الطبعة الثانية ١٣٩٦ هـ.

٤- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد الشنقيطي، دار الفكر بيروت لبنان ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م.

٦- الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، تأليف: خير الدين الزركلي، ط٧، دار العلم للملايين: بيروت.

٧- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير لأبي بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة المملكة السعودية ط٥، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٨- البحث في البلاغة والحجاج: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود،

٩- بديع القرآن، لابن أبي الاصبع المصري ــ تحقيق د/ حفني محمد شرف ط ٢، دار نهضة مصر للطباعة.

١٠- البديع في البديع المؤلف: أبو العباس، عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي (المتوفى: ٢٩٦هـ) الناشر: دار الجيل، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

١١- البرهان في وجوه البيان لأبي الحسين إسحاق بن وهب تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، مطبعة الرسالة

١٢- البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، د. محمد العمري دار إفريقيا الشرق.
١٣- البلاغة والاتصال، لجميل عبد المجيد، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، ٢٠٠٨م
١٤- البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر للجميع، ١٩٦٨م.
١٥- التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عن: علي الإدريسي: في تأسيس الحجاج لدى مفكري الإسلام، حمو النقاري: ابن حزم فارس الحجاج في الأندلس ط الرباط ، ندوات٢٠٠٦ .
١٦- التحرير والتنوير، لابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع: تونس١٩٩٧م .
١٧- التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صابر الحباشة : صفحات للطباعة والنشر، سورية، ط١، ٢٠٠٨
١٨- التسهيل لعلوم التنزيل محمد بن أحمد بن عبد الله بن جزي الغرناطي الكلبي، ط٤ دار الكتاب العربي لبنان: ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣
١٩- التعريفات، للجرجاني، تحقيق: محمد على أبو العباس، مكتبة القرآن القاهرة: ٢٠٠٣ م .
٢٠- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٢١هـ
٢١- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر في الدراسات القرآنية والنقد الادبي، حققها وعلق عليها محمد خلف الله ، دكتور محمد زغلول سلام، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر
٢٢- الجامع الصحيح، محمد بن عيسى الترمذي تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي بيروت.
٢٣- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.
٢٤- الحجاج في الشعر العربي القديم، من الجاهلية إلى القرن الأول الهجري، بنيته وأساليبه، د. سامية الدريدي.

٢٥- الحجاج في القرآن، من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة دار الفارابي، ط١، بيروت، ٢٠٠٧م

٢٦- الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله رضوى الرقبى، عالم الفكر، العدد ٢، المجلد ٤٠ أكتوبر، ديسمبر ٢٠١١.

٢٧- خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة ط ٩، ١٤٣٥ه ٢٠١٤م

٢٨- دلائل الإعجاز، عبد القادر الجرجاني ت: محمود شاكر ط الأولى: مطبعة المدني بالقاهرة ١٤١٢ هـ ١٩٩١م.

٢٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت د. ت.

٣٠- شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي.

٣١- الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، ضبطه وحققه: حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية بيروت ــ لبنان.

٣٢- فن الأسلوب، دراسة وتطبيق عبر العصور الأدبية د/ حميد آدم، ط دار الصفا للنشر

٣٣- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن المركز الثقافي، الدار البيضاء د. ط، ٢٠٠٠

٣٤- في بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري: مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، دار الثقافة

٣٥- القاموس العربي الأول لمصطلحات علوم التفكير عيسى سعد العوفي وعبد الرحمن علوي دار ديبونو ط١ الأردن ٢٠١٩.

٣٦- قطف الثمار في بيان عقيدة أهل الأثر ويليه كتاب مسائل الجاهلية، محمد صديق حسن خان القنوجي، والإمام محمد بن عبد الوهاب. وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية ١٤٢١ هـ.

٣٧- الكامل في التاريخ للشيباني، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية ١٤١٥ هـ

٣٨- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ٢٠٠٦.

٣٩-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله الزمخشري الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٧ه.

٤٠- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم. محمد الشاذلي، القاهرة: دار المعارف، د.ت،

٤١- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط ١ ١٩٩٨

٤٢- اللغة والحجاج د /أبو بكر العزاوي، العمدة للطباعة، الدار البيضاء، المغرب ط١ ١٤٢٦- هـ ٢٠٠٦ م.

٤٣- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير ت: كامل محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، لبنان.

٤٤- مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية القاهرة، ١٩٨٣.

٤٥- مختصر سيرة ابن هشام لأبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري ت٢١٣ ه اختصرها وعلق عليها السادة العلماء أعضاء لجنة السيرة النبوية بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٤٣٠ ه ـــ ٢٠٠٩م .

٤٦- مصنف في الحجاج: الخطابة الجديدة عبد الله صولة مقالة (الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته) ترجم عبد الله صولة هذه الحجج من كتاب برلمان وتيتيكا

٤٧- المعجزة الخالدة عظمة معجزات القرآن، شهادة العالم بإعجاز القرآن دراسة أسلوبه البياني، إعجازه العلمي والتشريعي والخلقي، آثاره في اللغة والأدب نقض مزاعم المستشرقين. تأليف الدكتور حسن ضياء الدين عتر الطبعة الثالثة ١٤١٥ه ١٩٩٤م دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان .

٤٨- معجم الوسيط: مجمع اللغة العربية مكتبة الشروق الدولية، ط٤ ٢٠٠٤ .

٤٩- المغالطة الحجاجية في سياق الاستشهاد تأصيل منهجي - أ.د. عيد بلبع سياقات اللغة والدراسات البينية المجلد الثاني العدد الخامس إبريل ٢٠١٧

٥٠- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د/ جواد على، دار الساقي الطبعة الرابعة ١٤٢٢هـ ٢٠٠١

٥١- المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت،٢٠١٠.

٥٢- من أسرار التعبير في القرآن حروف الجر، للدكتور عبد الفتاح لاشين، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ /١٩٨٣ م، مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية.

٥٣- منهاج البلغاء وسراج الأدباء حازم القرطاجني: تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الغرب الإسلامي، تونس ط ٣، ١٩٨٦.

٥٤- المنهاج في ترتيب الحجاج، لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي، (٤٠٣ ـــ ٤٧٤هـ) تحقيق عبدالمجيد تركي، ط ٣، بيروت: لبنان دار الغرب الإسلامي، د.ت، ٢٠٠١.

٥٥- نظرية الحجاج نعمان بوقرة، مجلة الموقف الأدبي، ملخص بموقع اتحاد الكتاب العرب، ع٧، دمشق، ٢٠٠٥.

٥٦- نظرية المحاجة، اكتشاف جديد وخصب، إيف جانري: ت: محمد يحياتن، مجلة اللغة والأدب، دار الحكمة، ع١١، الجزائر، ١٩٧٧.

٥٧- نقد النثر: أبو جعفر قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي. حققه وعلق حواشيه د/ طه حسين بك، عبد الحميد العبادي، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٨.

٥٨- الوفي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي تح أحمد الأرناؤوط، دار إحياء التراث بيروت،١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠م

فهرس الموضوعات

م	الموضـوع	الصفحة
١-	ملخص	٤٥٠٧
٢-	Abstract	٤٥٠٩
٣-	المقدمة	٤٥١١
٤-	التمهيد:	٤٥١٤
٥-	أولًا: الحجاج في اللغة والاصطلاح:	٤٥١٤
٦-	ثانياً: تعريف الإقناع لغة واصطلاحاً:	٤٥١٨
٧-	ثالثاً: التعريف بالوليد بن المغيرة	٤٥١٩
٨-	المبحث الأول: نشأة الحجاج وعلاقته بالبلاغة وعلاقتهما بالإقناع	٤٥٢٢
٩-	المبحث الثاني: حجاج الوليد بن المغيرة حول القرآن الكريم	٤٥٤١
١٠-	المبحث الثالث: عقاب الوليد بن المغيرة بين سورتي المدثر والقلم	٤٥٦٣
١١-	الخاتمة.	٤٥٨٠
١٢-	ثبت المصادر والمراجع.	٤٥٨٣
١٣-	فهرس الموضوعات.	٤٥٨٨